زينب عفيفي

هؤلاء يعترفون

دار المعارف

اقرأ

[٥٨٩]

هؤلاء يعترفون

إن الذين عنوا بإنشاء هذه السلسلة ونشرها ، لم يفكروا إلا فى شىء واحد ، هو نشر الثقافة من حيث هى ثقافة ، لا يريدون إلا أن يقرأ أبناء الشعوب العربية . وأن ينتفعوا ، وأن تدعوهم هذه القراءة إلى الاستزادة من الثقافة ، والطموح إلى حياة عقلية أرقى وأخصب من الحياة العقلية التى نحياها .

طه حسين

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

إهداء

إلى الضوء الأخضر

في حياتي

زينب عفيفي

* اعتراف

أعترف.. أنى لم أتعود أن أذهب إلى فنان أو أديب أو كاتب وأنا أحمل مجموعة من الأسئلة العويصة تسرر عضلات المحاور ، كما يحدث فى معظم الحوارات الصحفية ، وإنما أكتفى بأن أحمل فى ذهنى فكرة واحدة تتفجر منها الأسئلة ، وقد أشترك فيها ، وقد تفرضها لغة الحوار ، وقد يصنعها المتحاور بنفسه ، لتكون النتيجة حوارًا يشبه الاعتراف أو حوارًا ذاتيًّا بصوت عال .

وأحسب أن هذه العفوية المقصودة تعطى للحوار روح الكاتب أوالفنان الذى شاركنى فى اللقاء.

وقد يلزمنى آخرون بأن أغير من طبيعتى ، ويصرون على قـراءة الأسئلة ، وبعضهم يصر عن حذف بعضها أو تغيير كلماتها ، فلا أملك إلا أن أفعل ذلك بالرغم منى .

وأعترف أننى اخترت شخصيات هـذا الكتـاب

من بين العشرات الذين قمت بالحوار معهم لأنهم لم يعطونى فرصة للتحاور معهم أو طرح أسئلة ، بل كادوا هم أنفسهم الذين صنعوا أسئلتهم . !

ومن ثم ، فيحق لأى قارئ أن يعطينى حقى القليل فى إخراج هذا الكتاب وأنا أدونه من خلال هذه اللقاءات المعمقة ، مسلّمة لضيوفى بالفضل الأكبر .

وأعترف أخيرًا أننى إنما أردت أن أضع هذه الحوارات بين دفتى كتاب لعلها تكون إضافة خاصة إلى أعمال الكاتب أو الفنان فتصبح عملاً من أعماله وإن كان لم يسطرها بقلمه .

زينب عفيفى

نحن فى حاجة إلى إعادة نظر فى كل شىء ..
إلى قراءة الواقع قراءة صحيحة
إلى مواجهة الحقائق بشجاعة
إلى بناء سفينة تصلح لمواجهة أى طوفان

نجيب محفوظ

✳ لاأفكر فى الكتابة إلالحظة الكتابة

لمأكن أتوقع أن يمتدالحوار مع الكاتب الكبير نجيب محفوظ إلى خمس وخمسين دقيقة يتحدث فيها عنأشيائه البسيطة وأحلامه الصغيرة، وعاداته فى الكتابة ، ويبوح بما يسعده وما يحزنه .

للوهلة الأولى نسيت أننى أمام كاتب كبير حصل على أعلى جائزة أدبية فى العالم ، « جائزة نوبل » بساطته وتواضعه وحنانه الأبوى جعلنى أشعر بأنه أبى أو أحد أقاربى المقربين ، لذا لم أجد أى خجل أو تردد فى طرح أسئلتى البسيطة البعيدة إلى حد ما عن القضايا الفكرية والثقافية «العويصة» وتركت العنان للحوار ليكون تلقائيا .

فى البداية سألت الكاتب الكبير، ما هو وجه الشبه بينك وبين النيل ، أقصد بينك وبين الأهرامات ، أعنى بينك وبين مصر ؟ !

قال باسمًا : لا أعرف ؟

قلت : بل أنا أعرف !

قال كاتبنا الكبير : ماذا ؟

قلت : الأصالة ، أصالة الكاتب الذى لم يتغير أو يتلون ولم تضطره الظروف لتبديل جلده وفكره ، وظل قلمه صامدًا كالأهرامات ، عريقًا كالنيل ، شامخًا كمصر .

وضحك قائلاً : أنت إنسانة كريمة القلب .

وبدأ الحوار .

قلت : لقد أضأت بفكرك وأدبك عوالم كثيرة من الفن والأدب والسياسية والحياة ، كيف تتابع الآن الحركة الثقافية والفنية ؟

قال باقتضاب : عن طريق الآخرين .

قلت : من هم الآخرون فى حياتك ؟

قال : الأصدقاء ، ومن نعم الله علَىّ أن لدى أصدقاء كثيرين هناك من يقرأ لى جريدة الصباح ، ومن يخبرنى بأحدث الإصدارات ، ومن يحكى لى مناقشة أدبية نشرت فى إحدى المجلات وهكذا ، ينقل لى الآخرون أحداث العالم التى انقطعت عنها إجباريًّا لضعف سمعى وبصرى .

قلت: وماهو إحساسك وآخرون ينقلون لك أخبار العالم الخارجى؟

قال : إنها خسارة كبيرة أن الواحد – منذ مدة لا يستهان بها – قد أصبح عاجزًا على أن يقرأ كلمة فى جريدة أو مجلة أو كتاب

أويشاهد تليفزيون ، لكن الحقيقة وجود الأصدقاء فى حياتى خفف عنى الوطأة .

قلت : ما هى تفاصيل يوم من أيام حياتك ؟

قال : فى الصباح يقابلنى أحد الأصدقاء ، ويقرأ لى الجريدة لتظل الصلة بينى وبين الأحداث متصلة ، وفى المساء يمر على صديق آخر يأخذنى بسيارته ونتكلم معًا بدون رسم خطة حتى لا تكون جلسة مقصودة ، وفى وسط الكلام يتحدث معى عن كتاب جديد أو مجلة أو مسلسل شاهده .

وصمت كاتبنا الكبير قليلاً ثم قال : وشىء أفضل من لا شىء !

قلت : ما هو آخر فيلم شاهدته بنفسك ؟

قال : لا أذكر ، أفلامى الأخيرة كلها لم أرها .. منذ عام ١٩٨٧ انقطعت صلتى بمشاهدة الأفلام .

قلت : هل تذكر آخر مسرحية شاهدتها ؟

قال : لا أذكر .. هذه الأشياء أصبحت تاريخًا ، آخر فيلم وآخر معرض زرته .. عام ٨٧ انقطعت علاقتى بالأحداث الخارجية بشكل حاسم .

قلت للكاتب الكبير : هل هناك مواعيد محددة تكتب فيها ؟

قال : كل صباح أخصص ساعة لقراءة الجريدة وبعد الظهر من كل يوم أجلس لأكتب وجهة نظر أو تأملات أو خواطر ، وإذا ربنا فتح عليّ قد أكتب القصة القصيرة .

قلت : هل توجد أعمال جديدة فى الطريق إلى النشر ؟

قال : كان لدى مجموعة قصصية قصيرة محتفظ بها ، وأقدم منها قصة كل شهر لنشرها فى مجلة نصف الدنيا ، لكن آخر رواية كتبتها كانت رواية « قشتمر » وبدأت أتحرك للكتابة منذ شهر يناير الماضى بعد انقطاع عن الكتابة من عام ٨٧ ، إننى أكتب حاليًا قصصًا قصيرة .

قلت : ما الذى أثارك للعودة للكتابة ؟

قال كاتبنا الكبير : كنت أظن أننى لن أكتب مرة ثانية بعد أن توقفت عن الكتابة منذ عام ٨٧ ، وأن الكتابة أصبحت أمرًا مستحيلاً وخاصة أن هذا التوقف ليس مثل توقف زمان ، إنه توقف إجبارى ، لكن – الواحد – كبر لدرجة أننى اعتقدت أن هذا التوقف هو التوقف الأخير ، هذا ليس معقولاً ! .. وإنما لن أخفى عليك أننى بدأت أكتب قصصًا قصيرة جديدة ، حقيقى باكتبها بصعوبة لأننى لا أدرى ما أكتبه ، ونظرًا لاستخدامى « العدسة » لا أرى ما أكتبه فأكتب سطرًا ، ثم أحضر العدسة لأرى ما كتبته .. توجد معاناة ، لكنى متمسك بها مثل الغريق الذى يتمسك « بقشة » !

قلت لكاتبنا الكبير : هل ما زلت تواظب على عادة المشى وجلو
على المقهى كل صباح ؟

قال : كل عاداتى تغيرت ، لأنها كانت عادات مرتبطة بالعم
وثانى شىء بالصحة ، لم أعد أستطيع السير من القهوة إلى م
مثلما كنت أفعل . ولكننى أستطيع المشى من بيتى إلى بائع الج
لكن أن أسير إلى مكتبى.. لم يعد فى إمكانى أن أفعل ذلك .

وسألته : هل لديك عادات خاصة تقوم بها قبل الشروع
الكتابة ؟

قال بحسم : لا أفكر فى الكتابة إلا فى لحظة إحساسى بها ،
هناك فراغ مسبق أفكر فيه ، وقبل الكتابة مباشرة لا أفعل شيئًا ،
الكتابة . أنا لا أدون أفكارى .

وقلت له : ما هى النصيحة التى يقدمها كاتبنا الكبير إلى الك
الشبان الذين يحلمون بأن يصبحوا كتابًا مشهورين ؟

قال : كل يوم جمعة نجتمع مع الأصدقاء ويكون فيها ش
ونناقش كل هذه الأمور ، لكن فى الحقيقة أنا أخاف من النصا
لأن كل زمن له إيقاعه وطرقه ، ماذا أقول لشباب اليوم ، سأقو
الطريقة التى تكونت بها ، وأحيانًا يأتينى شاب ويقول لى : أري
أكون أديبًا بماذا تنصحنى ؟ !

أقول له كيف اشتغلت .. كان زماننا مستقر وهادئ وطويل ، وكنا نعد أنفسنا للثقافة المتخصصة ، فمثلا ، فى الأدب نقرأ التراث والمعاصرين والمؤلف والمترجم ، إلى جانب ذلك كنا نقرأ فى الثقافة العامة ، تاريخ الحضارات ، وتاريخ البشرية وعلم النفس ، وعلم الاجتماع والفنون ، ثم نبدأ الكتابة ، وقد تطول بنا المسافة لأنه ليس وراءنا « كرابيج » حتى نصل إلى النشر والتقنية بعد عشرين عامًا ، ولو نصحت أى شاب بهذه النصيحة ربما تكون نصيحة مدمرة !

قلت له : إذن من أين يستمد الأديب الشاب ثقافته ؟

قال : الأديب الشاب فى عصر سريع ، والأذواق فيه تتغير بسرعة غريبة ، فى هذه الأيام نسمع فى الصباح عن مطرب معين فما نكاد نسمعه حتى يظهر مطرب غيره ، فإذا كان يعد نفسه على طريقتى يكون هناك أكثر من مذهب وأكثر من تيار واتجاه وفكر ، فلابد بغريزته وبتفكيره بزمانه ، يعرف كيف يتثقف ثقافة خاصة وعامة ويختار وسيلته دون أن أفرض عليه أنا طرقا تكون قد أصبحت غير صالحة لزمنه .

هل يمكن أن ينتظر خمسة عشر عامًا حتى يقدم نفسه للناس ؟ ! والنصيحة التى يمكن أن أقدمها لأديب اليوم هى نصيحة الثقافة العامة مهمة .

وانتهزت فرصة الشباب والمطربين الجدد وسألت كاتبنا الكبير : هل تسمع الأغانى الجديدة ؟

قال : سمعت منها قليلاً عندما كنت باسمع .

واستطردت سؤالاً : هل ما زالت تسمع أم كلثوم التى نعرف مدى حبك لغنائها إلى حد تسمية ابنتك على اسمها ؟

قال : لم أعد أسمع أم كلثوم لأننى عندما أسمعها يصل إلى أذنى ضجيج ، وعبد الوهاب افتقدته هو الآخر من ضعف السمع طبعًا ، السمع عندى وصل لدرجة صعبة ، وأعتقد أن الذى حدث لى أن الشعيرات التى كانت تتلقى السمع فى أذنى ضمرت مثل ضمور الشبكة فى العين ، وأصبحت أسمع الغنوة كضجيج مزعج .

لقد تابعت أغانى الشباب لفترة .. لكن منذ أربع سنوات لم أعد أسمع ، إن أجمل ما سمعت كانت أم كلثوم وعبد الوهاب وأحب سيد درويش فى كل أغانيه ، وأغنية الأطلال لأم كلثوم ، أما عبد الوهاب فصوته جميل للغاية . وكما قلتِ فقد أسميت ابنتى على اسم أم كلثوم .

قلت : هل كانت لك علاقة صداقة مع أم كلثوم ؟

قال : لا .. ولكن عندما أقام لى الأهرام حفل تكريم لبلوغى سن الخمسين ، سأل الأستاذ حسنين هيكل أم كلثوم إذا كانت ترغب فى حضور حفل تكريمى ووافقت على الفور ، وجاءت أم كلثوم فى عيد ميلادى الخمسين ، وكان لقائى الأول والأخير معها ، ولم

تغن فى عيد ميلادى ولكنها حضرت الحفل فقط وسط ناس كثيرين من أهل الفن والثقافة .

أما عبد الوهاب فكان معى فى المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب وقد دعانى مع د . مصطفى محمود للتعارف ، وتناولنا العشاء معه فى بيته .

قلت للكاتب الكبير : بعيدًا عن عالم الفن والأدب وفى داخل منزلك ، كيف تتعامل مع بناتك ؟

قال ضاحكًا : الطريق الذى أتبعه ، الديمقراطية ، أقول الرأى والتوجيه وأترك للإنسان حريته ، ولم تنشأ مشاكل تدلنى على أن هذا الطريق خطأ .

قلت له : أنت زوج ناجح ، فما هو أساس نجاح العلاقة الزوجية ، وهل هناك صفات خاصة لزوجة الكاتب ؟

قال : أساس الزواج الناجح أن يحترم كل منهما الآخر ويعتبره شخصًا مثله تمامًا له حقوق مثلما عليه واجبات ويحترم كل منهما هذه الحقوق . أما دور الزوجة فهو الاهتمام بزوجها ، وكل زوجة تختلف عن الزوجة الأخرى بالنسبة لمهنة زوجها ، فهذا أمر لا مفر منه ، فهناك رجال يعودون لبيوتهم بعد انتهاء عملهم ثم يذهبون ليجلسوا على القهوة ؟ فهذا النوع من الرجال لهم علاقة معينة مع زوجاتهم وتختلف عنه زوجة الحارس وبالتالى زوجة الطبيب ، ولذا

كل زوجة تختلف فى تعاملها مع زوجها حسب ما تتطلب منها مهنته بحكمة حتى تسير الحياة .

قلت : هل هناك أمور معينة يطلبها الرجل من زوجته ، أو بمعنى آخر يريد أن يجدها فى زوجته ؟

قال : يكفى الحد الأدنى من الثقافة ؟

قلت : هل التقارب الفكرى هام لإنجاح العلاقة الزوجية ؟

قال : لا أريد أن أقول لازم ، لكن يصح أن يكون ذلك من أسباب السعادة أو من أسباب التعاسة لماذا ؟ لأن السعادة موهبة فى الإنسان .. فهناك ناس تسعدك ، ولديها قدر من الحكمة وحسن المعاملة بحيث أنها تسعدك ، وهذه موهبة تضمن الحياة المعقولة ، فإذا كان بين الرجل والمرأة تقاربٌ فى الثقافة .. تكون علاقة متالية ، والذى ليس لديه هذه الموهبة لن تتحقق له هذه السعادة سواء بالثقافة أو بغيرها إنما تزيد التعاسة ؛ لأن السعادة ليست بتقارب الثقافة وإنما السعادة أن يكون الإنسان لديه استعداد أخلاقى وطبيعى لإسعاد الآخرين والتعايش معهم .

قلت له : ما الذى يسعدك اليوم ؟

قال : أشياء كثيرة ، (تم صمت) .

قلت : مثل ماذا ؟

قال : الذى بقى أولاً ، ثم قدرتى على إقناع نفسى بالسكوت للواقع ، (ولا أقول لنفسى كان زمانى بقرأ أو كان زمانى باسمع) ، فهذا لى يجلب إلا التعاسة ، لكن فى ظروفى العادية لى أصدقاء وأولاد وأسمع عن الثقافة من ناس مثقفين فماذا أطمع بعد ذلك ؟

قلت : هل تتابع الحركات الثقافية والفنية خارج مصر .. أم تكتفى بما يصلك عن طريق الأصدقاء من الداخل فقط ؟

قال : إننى أعرف عنها بقدر معرفة أصدقائى بها ، والذين أتقابل معهم ، ولكنْ هناك شىء هام هو أن الحركات الثقافية خارج مصر أصبحت قليلة جدًّا.. أيام شبابى كان الرواد هم النوافذ للفكر العالمى والحضارة العالمية، كنا نعرف كل الحركات الثقافية فى العالم، لكن فى هذه الأيام.. المجلات المحلية لا تعرف ما الذى يحدث فى البلاد العربية وما الذى يحدث فى أوربا الآن ؟ ! فمثلاً نجد ناسًا كثيرة تتكلم عن مذاهب نقدية ، وعندما نسألهم هل هذه المذاهب جديدة يقولون: إنها انتهت منذ عشر سنوات أومنذ خمسة عشر عامًا، فأقول لهم: وتطلقون عليه الفكر المعاصر! كيف؟

قلت للكاتب الكبير : ما هى أحلامك الخاصة ، وهل لديك أحلام عامة ؟

قال : أحلامى لمصر أن تتغلب على مشاكلها وتخرج من عنق الزجاجة .. بمعنى آخر : نجاح التنمية الشاملة فى السياسة لتصل

بنا إلى الديمقراطية ، وفى الاقتصاد الذى يصل بنا للتوازن ، وفى الثقافة التى تصل بنا للتعليم الصحيح والتنوير والفهم .. فضلا عن الدورين العربى والإسلامى .

قلت : وماذا عن العالم الخارجى ؟

قال : عالمنا الخارجى لم يعد بالصفاء الذى كان ، الوفاق العربى يحتاج إلى ترميم طويل أو إعادة بناء ، وما حدث من توتر فى العلاقات بين مصر والسودان ، وبين مصر وإيران يحتاج إلى حكمة ثاقبة ومساع حميدة .

نحن فى حاجة إلى إعادة نظر فى كل شىء ، إلى قراءة الواقع قراءة صحيحة ، إلى مواجهة الحقائق بشجاعة ، إلى بناء سفينة تصلح لمواجهة أى طوفان .

قلت : وماذا عن مصر ؟

قال : ثمة بوادر تدعو للأمل ، فأقلام رصينة تحبذ التغيير ، وأُخرى تتحدث عن ائتلاف ، وثالثة عن حوار ووساطة رشيدة ، هذه بشائر تسر ، نرجو لها التوفيق ، وأن تتسع لتشمل كل شىء . وأن تفسح المجال أمام المخلصين من أبناء هذه الأمة ليبدعوا نهضة حقيقية تجمع بين أسمى المبادئ الخالدة وأحدث أساليب العصر .

أما على المستوى الشخصي فأحلامي قليلة لا يوجد أكثر من الختام المسك وربنا يحسن ختامنا ويرعى أولادي وأطمئن عليهم .

وساد الصمت بيننا لحظة ثم نظرت إليه فوجدته ينظر إلى علبة سجائره فقلت له : هل أنت مدخن ؟

قال: نعم.. مسموح لي بثلاث سجائر في اليوم ولكنني أتناول خمسًا.

قلت : هل كنت مدخنًا شرهًا ؟

قال : نعم .. كنت أدخن بشراهة .. سبحان من جعلهم خمس سجائر فقط .. إنه مرض السكر .

قلت : هل تلتزم بتناول الطعام الخاص لمرض السكر ؟

قال : طبعًا ، إنني أتناول طعام مرضى السكر ؟

قلت : كيف تتعامل معه ؟

قال : بالدواء والرجيم والباقي على الله .

قلت : كم فنجان قهوة تتناوله يوميًا ؟

قال : شفطة في الصباح وفي المساء فنجان قهوة سادة .

قلت : وماذا عن حالة عينيك ؟

قال : الدكتور على المفتي يتابع حالة عيني ، ومدير مركز السمع بإمبابة يتابع حالة أذني .

قلت : هل ما زلت تسير على النيل ، وهل النيل يعكس بداخلك شيئًا خاصًا ؟

قال : النيل أجمل وأجل شيء فى مصر وإننى أحبه جدًا .

وأخذ يدور بعصاه على الأرض مستندًا عليها بيديه .

فقلت له : هل أساعدك فى تغيير مقعدك ؟

ولكنه قال لى : لا شيء ، أكملى .

قلت : ما هى حكاية هذه العصاة التى تستند عليها ؟

قال : منذ عامين أهداها لى صديقى الفنان أحمد مظهر ، هذه العصا قام بصنعها لى بنفسه فى عزبته ومنذ ذلك اليوم وهى لا تفارقنى . إنهم الأصدقاء كما قلت لك فى بداية حديثنا .

وساد صمت قليل وقد علت وجه كاتبنا الكبير ابتسامة تعنى أنه قال كل ما لديه ، وأنى يجب أن أستعد لجمع أوراقى لأتيح لغيرى مقابلته حيث أنه حدد مقابلة كل من يريد أن يلتقى به صباح كل خميس فى مكتبه .

وجمعت أوراقى وأنا أتمتم انبهارًا بعبقرية وبساطة هذا الرجل المتواضع الذى حصل على جائزة نوبل والتى لم يسع إليها يوما وإنما هى التى جاءت إليه ووقفت على بابه .

إن الحب قصة لا تنتهى ، وجوهر الحب مثل جوهر الوجود ، لابد أن يكون فيه ذلك الذى يسمونه بالمجهول أو المطلق ، وبموت الحب فى الأرض ينتهى العالم !

توفيق الحكيم

❋ كل ما كتبته كان سدًا لفراغ

التقيت به مرتين في حياتي، مرة بالصدفة البحتة، ومرة ثانية كنت على موعد معه وأجريت معه حوارًا طويلاً بلا أسئلة ، وفي المرة الأولى كتبت عنه في كراسة مذكراتي الخاصة وكانت الدهشة والانبهار عاملين أساسيين في لقـــائي به في المرتين.

إنه الكاتب الكبير توفيق الحكيم الذي قابلته مصادفة في أحد البيوت الريفية خارج القاهرة ، عندما دعتني إحدى صديقاتي لقضاء يوم هادئ بعيدًا عن ضوضاء المدينة ، وكنت في بداية حياتي الصحفية ، ولم أكن أرى كثيرًا من الأدباء والصحفيين فيما عدا الذين عملت معهم في جريدة أخبار اليوم ، في ذلك اليوم ذهبت مع إحـــدى صديقاتي إلى هـذا المكان الريفي الهادئ الجميل ، وما أن وصلنا حتى كانت المفاجأة الكبرى في حياتي ..

كان يجلس فى أحد أركان المنزل الريفى متكئًا على عصاه مرتديًا (بريه) رماديا ويجلس بجواره مجموعة من الأدباء والصحفيين لم أعرف أيا منهم فى ذلك الوقت ، وما كدت أراه حتى تسمرت أقدامى فى مكانها .. هل أتقدم وأصافحه وأعرفه بنفسى ؟ أم من الأفضل ألا أتطفل عليه ، وقلت لنفسى من أكون حتى أقترب من هذا الأديب الكبير لأعرفه بنفسى وحتى إذا حدث لن يتذكرنى ، مجرد معجبة لفنه وأدبه وهم كثيرون ، ولم أتقدم خطوة واحدة نحو كاتبنا الكبير وأخذت أراقبه من بعيد وأرصد كل حركة من حركاته دون أن أقترب منه ، وانتصف النهار بدون أن أقول له كلمةً واحدة ولا حتى سؤالاً واحدا ، فى الوقت الذى كان يلتف حوله كل الموجودين سواء أكانوا من المثقفين والصحفيين أو من المدعوين خارج الوسط الأدبى ، إلى أن حان وقت الغداء ووجدت نفسى بالمصادفة أجلس إلى جـــواره ، فقلت له : أنا لا أصدق نفسى بأننى أجلس بجوار صاحب سجن العمـــر وزهرة العمـــر وهما من أكثر الكتب التى تأثرت بها وعاشت فى وجـــدنى . فضحك الحكيم مربتًا على يدى وقـــال لى : إنت مين ؟ قلت أنا ... وأعمل فى ... وقال لى وهل قرأت كتبًا أخرى لى .

وفوجئت بكاتبنا الكبير يفتح معى مواضيع كثيرة ويحكى لى قصصا عن ذكرياته وكتاباته وبداية عمله ، وأحسست لحظتها

بأننى إنسانه ممتلئة بكل ثقافات العالم ، ولم أكمل غدائى الذى وضعته أمامى وكأن عيونى أكثر اتساعًا ، وآذانى أكثر إنصاتا لما قاله لى الحكيم ، وكان يوما لا ينسى فى حياتى ، وكتبت عنه مقالة طويلة نشرتها فى جريدة أخبار اليوم بعنوان ، يوم فى حياة توفيق الحكيم بعيدًا عن الأدب والفكر ، توفيق الحكيم الإنسان البسيط الأب الودود ، وصفات أخرى كتبتها عن كاتبنا الذى بهرنى بشخصه مثلما بهرتنى أعماله الأدبية .

وفى المرة الثانية التقيت به فى مكتبه بجريدة الأهرام وكان هناك فارق زمنى ، لا يقل عن عشر سنوات بين اللقاءين ، كان حزينًا مكتئبًا وكنت قد ذهبت إليه ليحدثنى عن الحركة الثقافية فى مصر ، وكنت أتوقع أننى سأكتب صفحات وصفحات وربما سلسلة مقالات ولكن ما إن أخرجت أوراقى وجهاز التسجيل لأبدأ معه الحوار حتى قال لى : أخرجى من مكتبى .. أنا لا أريد أى إزعاج ، أنا ليس لدى أى معلومات أستطيع أن أجيب بها على تساؤلاتك ورجائى أن تذهبى عنى وتتركى هذه الغرفة فى هدوء مثلما دخلت فيها بهدوء ، فأنا أشكر المسئولين فى الدولة لأنهم احترموا عزلتى وتجنبوا إزعاجى بحضور اجتماعاتهم فى المجلس الأعلى للثقافة مراعاة منهم لصحتى وسنى، فحالتى الصحية لم تعد تسمح لى بالتواجد فى هذه الاجتماعات .

وكدت أجمع أوراقى وألملم أفكارى وأسئلتى وأذهب بها بعيدًا عن كاتبنا ولكنى قلت له : إننى مازلت أصر على الحديث معك فى أى موضوع تريده ، لأننى أعتقد أنك لو قلت أى كلام يكون بالنسبة لى صالحا للنشر والكتابة عنه فقال لى منزعجًا ، إن كل ما يشغل بالى الآن هو «الموت» وأن الفكرة الوحيدة المسيطرة علىّ هى «انتظار الموت» لم يعد عندى ما أقوله أو أكتبه ، لقد فقدت أسرتى وعائلتى وأنا أعيش الآن وحيدًا بلا ابن أو زوجة وكل ما كتبته لا أشعر به الآن!

أنا أصبحت مثل الشجرة التى اصفرت أوراقها فهى لا تعطى ثمارًا جديدة ، وأنا أشعر بأننى لا أملك شيئًا جديدًا أقوله أو أكتبه ، وكلما فكرت فى شىء جديد للكتابة أجد الأجيال الجديدة تعبر عنه فأشعر بالارتياح وأتابع أعمالهم ، لقد كتبت فى البداية وعلى الأجيال الجديدة تكملة المشوار ، لقد كتبت مسرحًا والآن يوجد نعمان عاشور والفريد فرج ، وكتبت القصة ويوجد نجيب محفوظ .

وساد الصمت بيننا وهالتنى حالة التشاؤم التى يعيشها الكاتب الكبير توفيق الحكيم بعد كل هذا العمر والإنتاج الأدبى الرائع وقلت له : أحيانًا يمر الإنسان بأزمة نفسية أو حالة شعور بالعدم ، ويتخيل أنه يتولى بنفسه نهايته ، ولكنها فى الواقع مرحلة وقتية تصبح نقطة انطلاق جديدة للفنان والمبدع ، وربما أنت تعيش كأديب ومفكر حالة التوقف هذه استعدادًا لانطلاقة جديدة ؟ !

فقال لى ساخرًا : وأنا فى سن الأربعين فكرت فى الموت وقلت لعزرائيل خذ عمرى ، فقال عزرائيل : تزوج ، وتزوجت وأنجبت ولدًا ومات الولد وماتت الزوجة وكل ما بنيته فقدته ، أين تكون الحياة الجديدة التى تتحدثين عنها ؟ كل كتاباتى منذ أن أمسكت بالقلم لأكتب كانت عبارة عن سد فراغ فى الأدب .

فقاطعته قائلة : كيف تكون كل هذه الأعمال الأدبية العظيمة سد فراغ ؟

* قال : من حيث النوع !

* قلت : كيف ؟

* قال : لم يكن هناك مسرح فبدأت أنا به ، وأدب اللامعقول والرواية الطويلة كلها فنون لم تكن موجودة على الساحة الأدبية فى مصر بدأتها ، وهناك من قام باستكمالها .

* فقلت : برغم اعترافك بأن هناك سد فراغ ، لكن الأنواع الأدبية داخلها محتوى والمحتوى يختلف من كاتب إلى كاتب فكيف تقول لن أكتب مسرحا ، لأن هناك من يكتبه حتى ولو كان على أرفع مستوى ؟

* فقال لى محذرًا : قلت لك : إن مهمتى انتهت ، والمحتوى يتعلق بالمجتمع ، والأجيال الجديدة تعيش فى المجتمع وهى أقدر منى فى التعبير عنه ، أما أنا فأعيش منعزلاً عن المجتمع ، وحالتى الصحية والنفسية لم تعد تدعوانى للانغماس فى أى حياة جديدة .

* فقلت له : ماذا يحدث لكاتبنا الكبير لو اقتحمت رأسه فكرة جديدة الآن وصالحة للكتابة ، ماذا تفعل ؟

* قال لى : لن أكتبها !

* قلت : هل أنت قاتل ؟

* قال : لا .

* قلت : لماذا إذن تقول : إنك لن تكتب الفكرة ، إنك فى هذه الحالة تصبح متهمًا بقتل أفكارك الجديدة وهذا ليس اتهامًا بقدر ما هو جريمة فى حق الناس والمجتمع .

* قال بتراجع الفنان ، إذا اقتنعت بالفكرة ربما أكتبها بشرط أن تجيب بداخلى على سؤالين لماذا أكتب ؟ ولمن أكتب ؟

واستطرد قائلاً وكأننى فتحت له ثقبًا فى حجرة مظلمة : الفكرة الجديدة لا يمكن أن يتحرر منها الكاتب إذا دخلت رأسه ، وأحسست أننى بدأت أخفف من حالة التوقف والتشاؤم التى يعيش فيها الكاتب الكبير .

* قلت له مداعبة : هل يمكن للإنسان أن يحب فى أى سن من العمر حتى ولو بلغ ٨٨ عامًا ؟

* فقال مبتسمًا : ممكن !

* قلت : وماذا يكون سلوك الإنسان ، هل يصبح سلوكًا طبيعيًا أو غير طبيعى ؟

* قال : يكون طبيعيًّا فى نظر نفسه وغير طبيعى فى نظر الناس !

وخرجت من حجرة الكاتب الكبير توفيق الحكيم وأنا أشعر بالارتياح لأننى استطعت أن أحقق حوارًا ، كان من المستحيل أن يحدث فى مثل هذه الحالة التى التقيت به فيها ، وسبب آخر أننى استطعت أن أتركه وعلى شفتيه بصيص من نصف ابتسامة ، تحاول جاهدة أن تجد لها مكانًا على شفتيه الحزينتين ، واعتقدت يومها أن حالة كاتبنا مرحلة وقتية ، وأنه يستطيع الانطلاق منها إلى عالم الفكر والأدب الذى لا ينضب أبدًا ، ولكن لم يمر عام على هذا اللقاء حتى توفى قبل أن يحتفل بعيد ميلاده التاسع والثمانين بشهور قليلة .

لكن لسنوات طويلة ستظل مؤلفات الحكيم المسرحية والروائية– ٧٥ مسرحية و١١ رواية – تراثًا ضخمًا ومثيرًا رصد فيه بوعى المجتمع المصرى قبل ثورة ١٩ وحتى ثورة ١٩٥٢ وما بعدها إلى أن رحل عنا !

ويموت توفيق الحكيم ، ويظل فكره وأدبه قصة لا تنتهى ، والذين اقتربوا منه أكثر من قالوا عنه : إن الحديث معه متعة حقيقية لأنه عندما يمضى فى سرد ذكرياته بطريقته الفذة فى تحويل أى حادث واقعى إلى مشهد تمثيلى كامل بحواره الذكى اللماح ، وحيويته التى تتجلى فى تعبيرات وجهه ، ولمعان عينيه وحركات يديه ، وتلوين نبرات صوته ، هو القدرة المتواصلة على العطاء والتجديد وعشق الحياة .

« كلما كنت بسيطًا .. بدوت معقّدا فى نظر الناس ، ويوم أن تكون معقدًا ستبدو بسيطًا !! » .

إحسان عبدالقدوس

* عاشق الحب والحرية

الذين اقتربوا منه وعملوا معه وعاشوا فى حياته قالوا عنه: نادرًا ما نجد شخصًا لا يعرف الكراهية ، والأكثر ندرة أن نجد شخصًا يوزع الحب على الآخرين بغير حساب، كانت صناعته الحب، صنع الصحافة بالحب، والسياسة بالحب، وكتب الأدب بالحب، وعاش حياته العريضة يدعو إلى الحب.

أحب الحياة، ولم يعتزلها قط ، وظل حتى آخر لحظة يعطى بقوة ويحتفظ بقدرته على الاستمرار .

وعندما مات إحسان عبد القدوس يوم عيد ميلاده الواحد والسبعين أغمض عينيه على صفحة النيل ووجه رفيقة عمره ، واقتنصته الغيبوبة فتعلقت به قلوب أبنائه وزملائه وأصدقائه وشعب عريض تعارف معه من أقصر طريق ، كلمة تنبع من القلب فتذهب إلى القلب وتخلق جسرًا من المودة والألفة .

ومات إحسان عبد القدوس ولم ألتق به فى حياتى إلا مرة واحدة ، ولكننى التقيت به مرات كثيرة من خلال رواياته وكتبه ومقالاته ، عرفته فى بداية حياتى كاتبًا رومانسيًا عاشقًا للحرية والحب ، تعلمت من أفكاره معنى الحرية التى تدفع الإنسان إلى تحقيق ذاته وأحلامه ، وعرفت من بين كتبه معانى الحب الخالد الذى يسكن العقول قبل القلوب فى كلمات بسيطة وحكايات يعتقد الكثير منا أننا أحد أبطالها .

قابلت الكاتب الكبير وكنت فى بداية حياتى الصحفية ولم تتح الفرصة أن أعمل معه أو أن أقترب منه شخصيًّا رغم أنه عمل فى جريدة أخبار اليوم كرئيس لتحريرها فترة طويلة من الزمن ، كنت فيها طالبة أدرس فى المدارس الثانوية ثم التحقت بكلية الإعلام لأعمل فى مجال الصحافة ، ولكنى لم ألتق به ، ولكننى سمعت عنه الكثير الذى جعلنى أندم على أننى لم أعمل معه .

وعندما التقيت به فى مكتبه فى الأهرام كنت أريد أن أجرى حوارًا صحفيًّا معه ، وأعترف بأن هذا الحوار لم يكن كافيًا للغوص فى أعماق كاتبنا ، ولو كانت هناك فرصة ثانية لأجريت معه حوارًا آخر بأسئلة أخرى ، فمازالت بداخلى كثير من التساؤلات كنت أريد أن أعرفها منه ، ولكن ليس تحقق التمنيات بأيدينا ، رحل إحسان عبد القدوس وعلينا البحث عنه بين أوراقه وكلماته وأصدقائه وكل من التقوا به .

عندما أكتب . . أنسى نفسى

قال لى الكاتب الكبير إحسان عبد القدوس عندما أجريت معه حوارى الصحفى : « أنا لم أندم أبدًا فى حياتى لأنى بطبيعتى قدرى وما يعرضه القدر هو تعبير عن طبيعتى الخاصة ، فكيف أندم وهذه طبيعتى ؟ وحتى لو اعترفت بالخطأ لا أعترف أنى نادم ، أعترف بأننى مستسلم ومؤمن بالقدر ومؤمن بأن الله الذى يفرض القدر يحبنى ويمنحنى كيانًا سعيدًا » .

ولم تكن هذه الكلمات مجرد سطور فى رواية جديدة للكاتب إحسان عبد القدوس ، وإنما كانت خلاصة فلسفته فى الأدب والحياة من خلال الحوار الهادئ الصريح الذى أجريته معه .

* قلت له فى بداية الحوار : من أنت ؟

* صمت قليلاً ثم قال : « أنا ولدت وعشت فى جو المسرح ،لأن أبى وأمى كانا من أهل المسرح ، وكان أبى الأستاذ محمد عبد القدوس يكتب المسرحيات وكان له مسرحية بعنوان « إحسان بك » أى على اسمى ، وقد عُرضت أو تعمد أن يعرضها فى عيد ميلادى ، وقامت ببطولتها المرحومة عزيزة أمير ، وأول ما كتبته — وكنت فى العاشرة من عمرى — كان تقليدًا لوالدى ، فكتبت أول مسرحية أذكر اسمها حتى الآن ، مسرحية « المعلم علم التلميذ طلع لسه شريف » وبعد ذلك ومن طوال معايشتى لأبى داخل المسارح أصبحت أهاب المسرح

وأخاف لأنى كنت أعيش مع معاناة كتـاب المسرح وممثلو المسرح ، لذلك وجـدت نفسى أقرب من المسرح ومن التمثيل ، وكنت كلمـا دخلت مدرسة ألحقونى فورًا بفرقة التمثيل باعتبـارى ابن ممثل وممثلة ، ولكنى كنت أعتذر وأهرب ،

وكان هذا أحد الأسباب التى جعلتنى أتفرغ للكتابة المسرحية ، وإن كنت منذ سنوات قليلة كتبت مسرحيتين أقمتهما على أسس مسرحية غريبة جدًّا أو جديدة جدًّا ، لأنى كعادتى لا أستسلم للنظم الفنية القائمة ، وأعتمد الخروج عليها ، وربما كان من غرابة هاتين المسرحيتين وهما : « لا أستطيع أن أفكر وأنا أرقص » والمسرحية الثانية : « الدراجة الحمراء » ولم يستطع أى مخرج مسرحى أن يخرجهما على المسرح ، وقد حاول صديقى فايز حلاوة أن يخرج إحداهما لكنه صاح بعد شهور : لا أستطيع .. لا أستطيع !! » .

* قلت للكاتب الكبير : أين أنت من النقاد .. كتبت خواطر فنية وتعرضت لقضايا أدبية ؟

* قال : « لا شك أنى أنا نفسى ناقد ، وقد مرت على فترة كنت مواظبًا أسبوعيًا على نشر النقد الفنى فى روز اليوسف ، والكتاب الكبار كلهم كانوا يتعمدون أن يكونوا نقادًا فنيين ، فالعقاد كان ناقدًا فنيًّا ، والتابعى والمازنى ، بل أن طه حسين نفسه نشر نقدًا مسرحيًّا ، وكأن النقد مسئولية تعتبر من مسئوليات كل

الكتاب ، وأنا إلى الآن لم أستطع التخلص من كتابة النقد الفنى ، وكلما ابتعدت عنه عدت إليه ، ولعلك تقرئين ما كنت أكتبه تحت عنوان « خذ عقلى وأعطنى فنك » ولكننى فجأة توقفت خصوصًا أنى لم أعد متتبعًا لكل تفاصيل الحركة الفنية .

وكان موقف النقاد من إنتاجى الأدبى ، والقصصى الذى أنشره أنى أتعمد ألا أتصل بهم ليكتبوا عن إنتاجى بعكس ما يفرضه العمل على كل الكتاب ، كما أنى لم أتعود أن أهدى كتبى إلى أى ناقد إلا بعد أن يطلبه هو شخصيًّا منى ، لأنى أنا شخصيًّا تصلنى كثير من الكتب المهداة ولا أجد وقتًا لقراءتها ، وقد قرأت كتابًا للكاتب رشدى صالح كان قد أهداه لى منذ أكثر من خمس سنوات ، وأنا لا أحب أن يكون هذا هو مصير كتبى التى أهديها فلا يقرؤها المهدى إليه أو يؤجل قراءتها ، ولذا فأنا لا أهدى كتبى .

لقد قال لى طه حسين : « إنه من كثرة الكتب التى تهدى إلىّ لا أجد مكانًا لحفظها فأضطر أن أجمعها فى « بانيو الحمام » ، وأن زوجتى تتشاجر معى لهذا السبب » وليس معنى هذا أنى لا أكون سعيدًا عندما يطلب منى أى ناقد كتابًا فأهديه إليه وأنا راض وسعيد ، ومن ناحية ثانية وضعى كصحفى يؤثر فى موقف النقاد منى ، لقد كنت رئيسًا للتحرير ويتعمد النقاد أن ينتقدوا رئيس التحرير هذا حتى يثبتوا أنهم لا يخافون من رؤسائهم حتى أيام كنت صاحب روز اليوسف

أذكر أن فتحى غانم كان قد بدأ يعمل معنا وكان متخصصًا فى النقد الأدبى وكتب نقدًا عن إحدى قصصى يهاجمنى بعنف ، وقرأت هذا النقد بصفتى رئيس التحرير ورغم ما فيه من هجوم فنى على شخصى نشرته فى روز اليوسف ، وجاءت يومها والدتى السيدة روز اليوسف وتشاجرت معى ، وصرخت فى وجهى كيف تسمح بنشر هجوم عليك فى مجلتك ، ورغم هذا فهذه طبيعتى حتى اليوم وهو « أن أضع حرية الرأى فوق كل شىء » .

وإذا كان معظم النقاد لا يتتبعون إنتاجى ، وإذا قرءوا لا يعلقون بشىء إلا بما يتيح لهم الهجوم على فنى خصوصًا إذا وجدوا فى القصة مشهدًا جنسيًا ، فهذا لا يعنى أن كل النقاد يتعمدون الهجوم علىّ ، فالأستاذ توفيق الحكيم نشر دراسة أصيلة محترمة أفخر بها عن بعض قصصى ، ولويس عوض ، ويحيى حقى ، ومن النقاد الشبان مأمون غريب وجمال الغيطانى .

* فقلت لكاتبنا الكبير : هذا الحديث يجعلنى أسألك عن رأيك فى الحركة النقدية من الناحية الأدبية أوالفنية كسينما ومسرح وتليفزيون؟

* قال بسرعة : « عمومًا الحركة النقدية لم تصل إلى المستوى الكامل الذى كانت عليه فى الجيل السابق ، ربما لأن الناقد نفسه لم يعد يبذل جهدًا كاملاً قبل أن ينشر نقده حتى أنى أتعجب من ناقد يكتب

عن إنتاجى مثلاً وهو لم يقرأ إلا قصة واحدة ، فى حين أن النقد الكامل يتطلب أن يقوم الناقد بقراءة كل إنتاج الكاتب حتى يفهمه كله ويكوّن رأيًا صحيحًا عن هذا الكاتب ، وقد يكون السبب هو أن مستوى الإنتـــاج الفنى نفسه تغير حتى أصبح معظمـــه يعتبر من فنون التسلية لا من فنـــون الخلق » .

* قلت للكاتب إحسان عبد القدوس : الندم موجود فى حياة كثير منا ، أين الندم فى حياتك على المستوى الأدبى من حيث الإنتاج وعلى المستوى الشخصى ؟

* أجابنى قائلا : « أنا لم أندم فى حياتى أبدًا لأنى بطبيعتى أعتبر أنى إنسان قدرى وما يفرضه القدر هو تعبير عن طبيعتى الخاصة فكيف أندم وهذه طبيعتى ، حتى لو اعترفت بالخطأ لا أعترف أنى نادم عليه ، ولأنى مؤمن بالقدر ومؤمن بأن الله الذى يفرض القدر يحبنى ويمنحنى كيانًا سعيدًا » .

* قلت له : وإذا سألتك أين تضع إحسان عبد القدوس بين كتاب الرواية فماذا تقول ؟

* قال : أنا لا أضع نفسى ولكن القراء هم الذين يضعوننى وأنا فخور بالمرتبة التى يضعنى فيها القراء .

* قلت : ولكن هل ينسى إحسان عبد القدوس الأديب إحسان عبد القدوس الصحفى عندما يكتب عملاً أدبيًا ، أم أن إحسان ككل هو الذى يكتب الأدب والمقال الصحفى ؟

* وضحك ضحكة خفيفة قائلاً : أنا أصلاً كاتب أديب لأنى كما قلت لك بدأت مقلدًا لأبى الأستاذ محمد عبد القدوس وهو أديب اشتهر بالمسرحيات والشعر والزجل ، أما الصحافة فقد رتبت نفسى عليها وامتصصتها متعمدًا حتى صارت فى كل دمى ، لأنى منذ بدأت وأنا أحاول أن أريح أمى السيدة روز اليوسف ، وأتحمل كل عبئها الصحفى ، ولن أخفى عليك سرًّا هو أننى طول حياتى منذ ولدت وأنا أتمنى أن تكون أمى امرأة عادية متفرغة لى ، تعطينى حنانًا وكل أمومتها وكل بركاتها ، فأنا عندما أكتب قصة أنسى أنى صحفى بل أنسى نفسى ، وعندما أكتب الصحافة أنسى أنى أديب ، وإن كان الأدب والصحافة كل منهما اختلط بالأمر داخل نفسى ، بل كل منهما خدم الآخر لصالح إحسان ، فالصحافة فتحت لى مجالاً واسعًا متعدد الجوانب لدراسة الحياة الاجتماعية التى توحى إلىّ بمواضيع القصص ، كما أن الأسلوب الأدبى خدم نزعتى الصحيفة .

* لماذا تتعمد انتقاء النماذج غير العادية فى تصرفاتها لتكتب عنها ؟ .

* قال لى وابتسامته الهادئة لا تفارق شفتيه : بالعكس إنى أتعمد انتقاء الشخصيات العادية ولكنى من منطلق الصراحة أكشف دخائل هذه الشخصيات فتبدو غير عادية ، كل فرد من البشر يبدو عاديًّا

فى مظهره ، غريبًا فى داخله ، أنت نفسك تبدين فتاة عادية لكنى واثق إذا كتبت عنك ستبدين للقارئ وكأنك لست فتاة عادية !

مالا نعرفه عن إحسان

القضية الأخيرة

ولأنى لم أستطع مقابلة الكاتب الكبير إحسان عبد القدوس مرة ثانية حاولت أن أجمع كل ما كتبه وأقرأ كل ما نشره فى قصص ومقالات لأعرفه أكثر .. عرفته عاشقًا للحرية والحق والصدق والإنسان ، وكان من بين قراءاتى هو ماكتبه بنفسه عن نفسه فى شبه مذكرات خاصة عن جزء لا يعرفه الكثيرون عن إحسان .

قال : « هذه ليست قصة خيالية .. فالخيال لا يمكن أن يكون مرًّا إلى هذا الحد ..

كانت هوايتى منذ كنت طالبًا فى المدرسة الثانوية هى الخطابة ، وكتابة البحوث ، فالخطابة تتطلب مواجهة الجماهير ، وكتابة البحث تتطلب العزلة عن الجماهير ، والخطابة هى أن تضع عقلك على طرف لسانك ، والبحث يتطلب أن تضع عقلك على طرف قلمك ، الخطابة تعتمد غالبًا على إثارة العواطف ، على اقناع العاطفة ، وكتابة البحث تعتمد دائمًا على إقناع العقل .

هوايتان ، متنافرتان ، ورغم ذلك فقد جمعت بينهما ، وكنت وأنا طالب فى المدرسة لا تفوتنى مناسبة سواء كانت وطنية أو اجتماعية

إلا وأقف فيها خطيبًا بين زملائى ، وفى لحظات أملك عواطفهم ، وأهزها هزًا عنيفًا ، أبكيهم على زميل توفى ، أو أحمسهم للخروج فى مظاهرة ، أو ألهب أنفهم بالتصفيق لفريق كرة القدم عندما نقيم له حفلة تكريم فى مناسبة فوزه ، وفى الوقت نفسه كان لى فى كل أسبوع بحث مكتوب عن إصلاح نظم المدرسة ، أو عن التنشيط الاجتماعى، أو، أو، بحوث أقدمها لناظر المدرسة أو للأساتذة المشرفين ، فتلقى اهتمامهم وإعجابهم ، وقادتنى هوايتى إلى كلية الحقوق .

ولم أكن أحلم بأن أكون وزيرًا ، أو زعيمًا ، كما كان يحلم بقية طلبة الحقوق فى عهد ما قبل الثورة . أبدًا ، كل ما كنت أحلم به هو أن أكون محاميًا ، محاميًا كبيرًا ، أخطب ، وأكتب البحوث القانونية والاجتماعية بل والسياسية ، وتفوقت فى كلية الحقوق ، وتفوقت فى هوايتى ، وأصبحت جميع الهيئات السياسية والاجتماعية داخل الكلية ، وخارجها تدعونى إلى الخطابة فى اجتماعاتها ، وإلى إعداد البحوث عن نشاطها ، ولم أكن منتميًا إلى واحدة من هذه الجمعيات ، ولا إلى حزب من الأحزاب ، أبدًا ، كان كل ما أحرص عليه هو أن أقتنع بالموضوع الذى أخطب فيه ، أو الذى أعد بحثى عنه ، سواء كان هذا الموضوع يهم الوافديين أو الشيوعيين أو الإخوان المسلمين ، أو ، أو ، المهم هو عدالة القضية التى أدافع عنها ، وقد كنت حريصًا فعلاً على ألا أتكلم إلا فى القضايا العادلة ، وبلغ منى الحرص إلى حد

أن العدالة أصبحت تعرف بى ، فإذا أعلن أنى سأخطب فى اجتماع ما ، أمن الناس كلهم بأن القضية التى ستبحث فى هذا الاجتماع ، عادلة ، وفشلت كل الوسائل التى تعرض لها كى أشترك فى الدفاع عن قضايا لا أؤمن بعدالتها ، فشل التهديد ، والإغراء ، وفشل التشهير والنفاق ، وبقيت صلبًا قويًّا ، فخورًا بصلابتى وقوتى ، ومكانتى التى أكتسبها بين طلبة وأساتذة الكلية .

وقبل أن أحصل على ليسانس الحقوق ، طبعت بطاقة تحمل اسمى : « محمود عباس » ثم « المحامى » .

كنت واثقا من حصولى على الليسانس، ونلته فعلاً عام١٩٤٣ بمجموع ٨٥ فى المائة ، والتحقت بمكتب الأستاذ عبد التواب عبد الحى محاميًا تحت التمرين ، وذهل الأستاذ عبد التواب ، ذهل من المذكرات القانونية التى أعدها ، ومن الأسلوب الجديد الذى أتبعه فى المرافعة أمام المحكمة ، أسلوب هادئ ، رنان ، يتسلل إلى قلب القاضى ، حتى إذا ملكت القلب أصبح من السهل علىّ أن أكسب العقل ، وأكسب القضية .

ولكنى كنت مصرًّا على ألا أقبل الترافع فى أى قضية إلا إذا اقتنعت بعدالتها ، قضايا كثيرة من التى ترد على مكتب الأستاذ عبد التواب ، كنت أرفض المساهمة فيها ، لا لشىء إلا لأنى غير مقتنع بعدالة موقف الموكل فيها ، وكنت أصارح الأستاذ عبد التواب ، برأيى هذا ، فلم

يكن يغضب ، بل ازداد تقديره لى ، واحترامه لشخصيتى ، إلى حد أنه بعد عام واحد من اشتغالى فى مكتبه ، قرر لى مرتبا عشرة جنيهات فى الشهر ، رغم أن المحامين تحت التمرين على أيامنا لم يكن من حقهم العمل بمرتب .

ورغم ذلك ..

رغم هوايتى ، ورغم كل هذا النجاح الكبير ، ورغم حلم العمر ، هجرت المحاماة قبل أن أتم فترة التمرين ، ذبحت هوايتى ، دفنت نجاحى ، مزقت حلم العمر ، وضحيت بالجنيهات العشرة ، كانت هذه الجنيهات العشرة تعنى شيئًا كبيرًا بالنسبة لى ، فقد كان والدى يعطينى حتى ذلك الحين ثمانية جنيهات فى الشهر إلى أن أستطيع أن أعول نفسى ، وكانت أمى قد أدخرت لى مائة جنيه لتدفعها مهرًا لى عندما أتزوج ابنة عمى ، إنى أحب ابنة عمى ، ومنذ قبضت العشرة جنيهات وأنا أدخرها كلها حتى يحين اليوم الذى أنفقها فيه مع ابنة عمى بعد أن نتزوج ، ولكنى ضحيت بالعشرة جنيهات أيضًا .

ماذا حدث ؟

حدث أن جاءنى فى بيتى الأسطى محمد أحمد محمود المكوجى ، الذى يقع دكانه تحت بيتنا مباشرة ، وأبلغنى أنه قبض على ابن عمه عبد المجيد علوان ، متهمًا بسرقة مجموعة من ولاعات السجائر من المحل التجارى الذى يعمل فيه ، وأقسم علوان على

أنه مظلوم ، وأنه ضحية اضطهاد رئيسه الذى كان يطلب منه أن يذهب إلى بيته لينظفه ، ولأن علوان كان يرفض ، فقد دبر له الرئيس هذه التهمة .

وقال الأسطى محمد أحمد محمود :

– علوان ابن عمى فقير ، ماحلتوش حاجة ، وبيجرى وراه سبع عيال ، غير أمه ، ومظلوم والله .

ولا أدرى لماذا تحمست فورًا لهذه القضية ، ربما لأنها أول قضية تأتى لى مباشرة ، وباسمى ، لا عن طريق مكتب الأستاذ عبد التواب وربما لأنى أردت أن أثبت لأهل الحى أنى أقف بجانبهم ، والأسطى محمد أحمد محمود من أكثر أهل الحى نفوذًا .

وربما لأنى أصبت بنوبة من العطف المفاجئ على عبد المجيد علوان وأولاده السبعة .

ورفضت أن أناقش الأسطى محمد أحمد محمود فى الأتعاب ، وذهبت إلى الأستاذ عبد التواب المحامى واستأذنته فى أن أتولى هذه القضية بنفسى ولحسابى ، فقد كان يجب أن أستأذنه لأنى ما زلت تحت التمرين. وسمح لى الأستاذ عبدالتواب، بل قال لى :

– اعتبر نفسك صاحب هذا المكتب ، كل إمكانيات المكتب تحت أمرك ، وشكرته ، وأسرعت إلى النيابة ونسخت محضر التحقيق

بنفسى ، فإنى لم أرد أن أشغل كتبة المكتب فى نسخه ، ما دام المكتب لن يستفيد شيئًا من هذه القضية .

وقرأت التحقيق بإمعان ..

إن السرقة كبيرة ، مائة ولاعة ماركة رونسون ، ثمن الولاعة الواحدة يصل إلى خمسة جنيهات ، أى أن قيمة المسروقات تصل إلى خمسمائة جنيه والاتهام قوى ، لقد عثروا على ولاعتين من الولاعات المسروقة فى منزل عبد المجيد غلوان ، وذهبت لزيارة المتهم فى السجن ، وقلت له :

– اسمع يا علوان ، قل لى الحقيقة علشان أقدر أخدمك ، كل الحقيقة ، وأقسم علوان أنه لم يسرق ، وأقسم أن رئيسه يضطهده وأنه هو الذى سرق الولاعات ، ودس اثنين منها فى بيته حتى يثبت عليه التهمة ، وأفاض علوان فى التفاصيل .

كلها تفاصيل معقولة ، وعلوان رجل عجوز ، تبدو الطيبة على وجهه ، والشقاء ، والفقر ، وإرهاق العمل الطويل ، وتأثرت ، تأثرت جدًّا ، وانتهى علوان من كلامه ، ثم قال :

– أقول إيه كمان يا أستاذ ، دلنى !

ولم تعجبنى هذه الكلمة ، لم أسترح لها ، ماذا يعنى ، ربما لم أفهمه تمامًا ، لا يهم ، وتبخر قلقى بسرعة وقلت لعلوان :

– اطمئن ، براءة بإذن الله ، وانهمكت فى القضية ، كل وقتى ، كل عقلى ، ولا أريد أن أروى التفاصيل ، ولكن استطعت بعد جهد عنيف ، أن أفرج عن علوان بكفالة خمسين جنيهًا ، ولم يكن مع علوان هذه الخمسين جنيهًا .

وقريبه الأسطى محمد أحمد محمود ، لم يستطع أن يدفع أكثر من خمسة جنيهات ، فذهبت إلى أمى وأقنعتها بأن تعطينى خمسين جنيهًا ، من مهر ابنة عمى ، على أن أردها بعد أن يحكم ببراءة المتهم ، إنى واثق من أنى سأحصل له على البراءة ، ورفضت أمى ، وألححت ، لأول مرة أختلف أنا وأمى ، وتماديت فى الإلحاح محاولاً إقناعها بأن الأمر متعلق بمستقبلى كمحام ، وأخيرًا خضعت أمى بلا اقتناع وأعطتنى الخمسين جنيهًا ، دفعتها فى خزينة المحكمة ليفرج عن علوان ، وأفرج عنه ، وقال لى علوان يومها وفى عينيه لمعة غريبة ، خيل لى برهة أنها لمعة خبث .

– كله يترد لك بإذن الله يا أستاذ ، الصبر طيب !!

ورفض صاحب العمل أن يعيد علوان إلى عمله ، فأعطيته خمسة جنيهات ، قرضًا إلى أن يستطيع أن يجد عملاً آخر ، وأعطيته خمسة جنيهات أخرى ، وخمسة حنيهات ثالثة ، لقد ذهبت إلى بيته ورأيت ما فيه من فقر ، رأيت أولاده السبعة حفاة ، عراة ، تطمس القذارة وجوههم ، ولم أكن أستطيع أن أتركه دون أن أمد له يد العون ، إنه مظلوم ،إنى واثق أنه مظلوم .

وعاد علوان يردد :

- كله يترد لك يا أستاذ ، الصبر طيب ..

ولم أفهم ما يعنيه ..

وحماسى لا يفتر ..

بل إنى كنت أتشاجر مع القاضى مرة لأنه أراد التأجيل ، إن حالة علوان لا تحتمل التأجيل ، انه لا يستطيع أن يعمل والإتهام معلق فوق عنقه ، وأولاده جياع ، وانتقل حماسى إلى زملائى الذين يعملون معى فى المكتب ، إنهم يدرسون القضية معى ، ويدلون بآرائهم ، والكتبة يساعدوننى ، صحيح أنى أعطيت لواحد منهم جنيهين ، وللثانى جنيهًا ، عندما كلفتهم بمهمات تتعلق بالقضية ، ولكنهم كانوا متحمسين ، بل إنى نقلت الحماس إلى المحكمة كلها أصبحت أعرف هناك باسم « محامى علوان » .

وبعد ستة شهور ،

حكمت المحكمة ، براءة ،

لم يكن الأمر سهلاً ، أبدًا لم يكن سهلاً أن أدحض أدلة الإتهام القوية، ولقد هنأنى الأستاذ عبد التواب على هذا الحكم، وزملائى ، واعتبرت أنا هذا الحكم هو الحجر الأساسى فى بناء مستقبلى .

وبعد أيام .. جاءنى علوان ، فى بيتى ؛ وهو يحمل فى يده لفافة كبيرة ، وقال لى بعد أن كرر شكره لى :

– أنا راجل حقانى يا أستاذ ، وأنت عملت كتير ، جميلك ما يتنسيش ، ودول ميت ولاعة ، يبقى لك منهم خمسين ..

ثم فتح اللفافة التى فى يده ، ولمعت أمام عينى الولاعات ، الولاعات المسروقة ..

وصرخت :

– إيه دول يا علوان ، وقال علوان ضاحكًا :

– دول الولاعات إياهم ، كنت مخبيهم عند مراتى الجديدة ، والحقيقة أنا كان نفسى أبيعهم بمعرفتى وأجيب لك تمنهم ، إنما السوق واقف ، وأحسن الواحد يتقل ، قلت أجيب لك نصيبك تتصرف فيه بنفسك ، ولم أرد ، بدأت أشعر بالدوار ، وقال علوان :

– ودى فوق البيعة ، احنا لنا بركة إلا أنت يا أستاذ ..

ووضع أمامى قطعة حشيش .

وصرخت :

– شيل الحاجات دى من قدامى ، شيلهم با أقول لك ، شيلهم أحسن أوديك فى داهية ..

وارتفعت نظرة غبية مدهولة فى عينى علوان ، وقال :

– جرى إيه يا أستاذ ، ما هو ما تبقاس طماع ، كفاية كده قوى ، وعدت أصرخ :

– اخرج بره ، اخرج بره ..

وجمع علوان الولاعات ، وأعاد قطعة الحشيش إلى جيبه ، واختفى من أمامى .

وسقطت فى هاوية الصمت ..

لا أريد أن أتكلم ..

لا أريد أن أرى أحدا ، ولا أمى ، ولا حطيبتى .

وألم ساحق يفرى صدرى ، ولم أكن أتألم لأنى وقفت بجانب مجرم وبرأته ، بل لأن علوان كان طول هذه الشهور ، يعتقد أنى أعرف أنه سارق الولاعات . وأنى كنت أدافع عنه لأطالبه بنصيبى فى المسروق ، وأفقت من نوبة الصمت ..

وعدت إلى المكتب ..

وحاولت أن أبدأ من جديد ، ولكنى لم أستطع ، لقد فقدت ثقتى فى نفسى ، وثقتى فى الناس ، لم أعد أصدق أحدًا ، ولا كلمة ، ولا حتى الأستاذ عبد التواب نفسه ..

وهجرت المحاماة ..

إنى الآن موظف فى شركة، موظف صغير، وعيبى أنى لاأصدق أحدًا ، وهو عيب أبعدنى عن الناس ، ولكنه يحمينى منهم ..

إنى أخاف من الناس ، أخاف ..

ولم أتزوج ابنة عمى ، لأنى أخاف ..

الهزيمة الأولى

من بين ما كتبه الكاتب إحسان عبد القدوس هذا المقال التاريخى عام ١٩٥٢ لكتاب « فاروق ملكًا » لمؤلفه الأستاذ أحمد بهاء الدين ، وفيه يحكى قصة حملة الأسلحة الفاسدة ووقائع قيام الثورة وطرد الملك فاروق ، ولأنها مقالة تاريخية وتحكى على لسان الكاتب الكبير إحسان عبد القدوس قصة حقيقية من واقع حياتنا ، نقلتها بالنص واحتفظت بها داخل دفتى كتابى المتواضع الذى أتعرض فيه لحياة هذا الأديب الكبير ، لعلها تعبر عنه باعتباره كاتبًا سياسيًّا حرًّا صاحب رأى سياسى، وتروى تفاصيل أخطر ليلة فى تاريخ مصر.

* * *

فى الساعة الرابعة من صباح ٢٤ يوليو دق جرس التليفون فى منزلى وسمعت أحد أصدقائى الضباط يقول فى لهجة حاسمة :

— لقد احتللنا القاهرة .

وابتسمت وأنا فى طريقى إلى مركز القيادة ، ابتسمت لأنى تذكرت ، أنه منذ يومين فقط ، أى فى يوم الأحد ٢١ يوليو كنت فى الإسكندرية ، وكانت وزارة حسين سرى تعانى النزع الأخير بسبب الأزمة التى كان يثيرها الجيش فى ذلك الوقت ، واتصلت يومها ببعض رجال حاشية فاروق ، وحاولت أن أقنعهم بأن الأزمة يجب أن تحل بما يحقق مطالب محمد نجيب ، الذى كان معروفًا أنه

على رأس الضباط الثائرين ، وكنت أحاول أن أقنعهم ، وأحاول أن أحذرهم ، ولكنهم لم يقتنعوا ، ولم يخافوا التحذير ، واتهمونى بالمبالغة ، وقال قائلهم : أتطن أن ستة ضباط يطبعون المنشورات ، ويسمون أنفسهم بالضباط الأحرار ، يستطيعون أن يفعلوا شيئًا ، دول عايزين واحد شديد يلبسهم طرح !!

ثم بدءوا يحاولون - كما حاولوا كثيرًا - أن يصلحونى مع السراى ، على حد تعبيرهم .

وأجبت بما اعتدت أن أجيبهم به ، بأنى لست مختلفًا مع السراى خلافًا شخصيًّا ، ولكنى صاحب رأى سياسى ، يتناقض مع رأى السراى ، ولن نصطلح سويًّا ، إلا إذا تنازل أحدنا عن رأيه ، وأنا لست مستعدًّا للتنازل عن رأيى ، كما أنى أعتقد أن السراى ليست مستعدة للتنازل عن رأيها ، لأنه معنى ذلك أنها تتنازل عن نفوذها ، وعن سطوتها ، وعن رجالها ، وعن مصالحها الشخصية التى أصبحت مدار تصرفاتها !

وتركتهم ، وأنا أقرأ فى عيونهم رأيهم فىّ ، وهو رأى ينحصر فى أننى شاب مغفل ، وأنى سأتغير عندما تتقدم بى السن وأجد أننى لم أصل إلى شىء ، ولم أجن شيئًا من « تغفيلى » فألجأ إلى حظيرتهم ألتمس النفع ، أو على الأقل ألتمس الرضا السامى !

وكانت ثقتهم بأنى مغفل ، وأنى لا أسعى لنفع شخصى ، وأنى لا أخدم بمواقفى جهة معينة ، وأنى لن أتحمل الفقر والضنك طويلاً ، كل ذلك هو عذرى لديهم ، عذر جعلهم يغفلون عنى كثيرًا ، ويعفوننى من مضاعفة الاضطهاد والظلم ، الذى كانوا يوقعونه بى !!

تركتهم ، وعدت إلى القاهرة !

وكنت أعلم أن شيئًا سيحدث ، ولكن لم أكن كبير الأمل فى حدوثه .

كانت الأيام قد عودتنى ألا أتفاءل كثيرًا وكنت أكثر تشاؤمًا من ناحية الجيش ، فقد سبق أن أعددنا العدة لمثل هذه الحركة منذ سنوات ، عندما أثيرت قضية الأسلحة الفاسدة ، وكان الرأى العام كله وراء هذه القضية ، وكنت أعتقد أن أى تدخل فيها سيثير الضباط – وكنا نسميهم يومها الضباط الصغار – وكنت أجتمع ببعض منهم ونرتب ما يمكن حدوثه إذا ما غلبتنا قوى الشر ، وغلبت العدالة .

وقد حدث التدخل .

وتمرمطت قضية الأسلحة الفاسدة .

ولم يتحرك الضباط الصغار .

وضاعت جميع التهديدات القوية التى كنت أوجهها إلى السراى على صفحات « روزاليوسف » ، حتى كنت أتفادى مقابلة رجال الحاشية كى لا ألتقى بنظرات الشماتة التى يوجهونها إلىّ .

ومنذ تخرجت فى كلية الحقوق عام ١٩٤٢ ، وأنا أحاول أن أشعل فى مصر نارًا تطهرها من أدرانها وأقذارها ، وفى سبيل ذلك اشتركت فى جميع الحركات الشعبية التى مرت بمصر فى ذلك الحين ، وعملت مع جميع الهيئات ، بالقدر الذى استطعته ، أيدت الشيوعيين ولم أكن شيوعيًّا ، وأيدت الإخوان ولم أكن من الإخوان ، أيدت الوفديين ، ولم أكن وفديًّا ، وأيدت هيئات مستقلة كثيرة ولم أكن أومن بمبادئها ، ولكن كنت أومن بمسعاها إلى الثورة حتى احتار الناس ، من أكون ، ولمن أعمل ؟ ! ولم أكن أعمل لأحد ، ولم أكن أطلب شيئًا ، إلا طالبًا للثورة ، فقد آمنت بأن الثورة يجب أن تسبق كل إصلاح ، وأننا لن نستطيع أن نبنى الجديد إلا إذا هدمنا القديم .

وقد خاب مسعاى خلال عشر سنوات .

لم ينجح تدبير اشتركت فيه ، ولم تنجح هيئة من الهيئات التى اعتمدت عليها .

ولذلك ، وحتى بعد أن رأيت القاهرة وقد احتلها الجيش ، وبعد أن أصبحت فى مركز قيادة الثورة ، لم أكن متفائلاً !!

واختليت بمحمد نجيب فى إحدى حجرات القيادة ، ومعنا بعض الضباط ، وسألته :

– ماذا تريد ؟

قال : – الدستور .. والإصلاح !

قلت :– هذا كلام عام ، إن أسألك ، ماذا تريد فى هذه اللحظة ليتحقق فى هذه اللحظة !

قال :– ماذا تعنى ؟

قلت :– إن لك مطالب ، من سيقوم على تنفيذ هذه المطالب ، هل ستتولى الحكم بنفسك ، أم ستعهد بمطالبك لوزارة الهلالى ، أم تريد وزارة جديدة !!

قال :– إنى لا أريد أن أحكم ، الدستور لا يتيح لى أن أحكم !

وكان يتكلم فى هدوء عجيب وهو يشد أنفاسه فى غليونه ، وكاد هدوؤه أن يثيرنى .

كنت أتصور قائد الثورة فى مثل هذا اليوم ، صاخبًا عصبيًا ، يلقى أوامره باستمرار ، وتلتف من حوله الجموع ليخطب فيها ويحركها .

ولكن هذا الرجل كان هادئًا ، وكأنه لم يفعل شيئًا ، وكأن عنقه ليس فى حبل المشنقة .

ثم بدأت أستريح إلى هذا الهدوء ، وبدأت أعصابى تسكن ، وأصبحت كأنى فى جلسة عائلية تبحث مشكلة طارئة !

وعدت أسأل محمد نجيب :

– إذن من تريده أن يتولى الحكم ؟

قال : أظن من الأوفق أن ندعو البرلمان السابق ، باعتباره آخر حلقة من حلقات الدستور ، قلت :

– إن البرلمان السابق يحتاج إلى تطهير ، ثم إن الحركة يجب ألا تتهم بالحزبية ، والبرلمان السابق كان حزبيًّا !

قال فى هدوئه العجيب : هذا صحيح ، ولكن الهلالى أيضًا يصطبغ بصبغة حزبية ،

قلت : بلاش الهلالى ..

قال : من ترشح ؟

ومرت بى ثلاث دقائق استعرضت فيها جميع الأسماء والوجوه ، أسماء ووجوه الشبان والشيوخ ، فلم أجد أحدًا يصلح – فى اعتقادى – للموقف ، بكل أسف !!

وعاد محمد نجيب يقول :

– ما رأيك فى بهى الدين بركات .. إنه رجل محايد !

قلت بصراحة :

– إنه أضعف من الموقف !

قال :

– على ماهر !؟

وصرخت فرحًا :

– إنه رجل كل أزمة .. أعتقد أنه يصلح .

وقال محمد نجيب :

– والضباط يعتقدون ذلك أيضًا !!

ونظرت إلى محمد نجيب فى عينيه الهادئتين المبتسمتين دائمًا . وتساءلت بينى وبين نفسى : هل كان يريد على ماهر من مبدأ الأمر ، وكل ما هنالك أنه أراد أن يقف على رأيى ، قبل أن يقول رأيه !!

من يدرى !

وعاد محمد نجيب يقول :

– ولكن ، هل يقبل على ماهر ؟

قلت :

– نسأله ، ولكن هل يقبل الملك ؟ !

وانطلق صوت من جانبى يقول :

– الملك مالوش دعوة . لماذا لا نعزل الملك ؟

وصمت برهة ، وتساءلت : نعم ، لماذا لا نعزل الملك ؟

وعرفت لأول مرة الهدف البعيد لحركة الجيش ، الهدف الذى فكرنا فيه مرارًا ، ولم نحاول تنفيذه أبدًا ، إلا فى مرة واحدة ، اجتمع فيها فريق من الضباط فى منزلى ، وقرروا اغتيال الملك ، وعارضت الفكرة ، لأن اغتيال الملك فى ذلك الوقت لم يكن يؤدى إلى شىء ، ولأن الإنجليز كانوا يستطيعون يومها ، أن يضعوا الأمير محمد على فى مكانه !!

وعبر اللواء محمد نجيب ، مجرى الحديث بسرعة ، قائلاً لى :

– تولى أنت سؤال على ماهر ، هل يقبل تولى الوزارة أم لا ؟

قلت :

– سأدعود إلى هنا لمقابلتك .

– يبقى عال .

وتركنى محمد نجيب ، وذهب إلى حجرة أخرى ليجتمع بالأستاذ مصطفى الصادق ، عم الملكة ناريمان ، الذى تطوع يومها ليكون رسول سلام بين الجيش والملك .

وكان مصطفى الصادق يحمل إلى محمد نجيب فى كل عشر دقائق عرضًا جديدًا .

عرض عليه أن يجيب الملك جميع مطالب الجيش ، بشرط أن يتوجه بها محمد نجيب إلى الملك ملتمسًا – كتابة – أن يتعطف جلالة الملك ويوليها اهتمامه .

ورفض محمد نجيب ذكر اسم الملك فى بيان الجيش .

وعاد مصطفى الصادق يقول : ان الملك قبل مطالب الجيش ، دون ذكر اسمه فى البيان .

ورفض محمد نجيب أن يجيب الملك مطالب الجيش إلا بعد أن تتغير الوزارة .

وجاء مصطفى الصادق يقول : إن الملك يرجو أن تمنحوه فرصة لتفاهم على ما تريدون .

وأجاب محمد نجيب : إننا عند موقفنا ، وسنتفاهم فى حدود الإجراءات العسكرية التى اتخذناها ،

... الخ !

ولكى تبدو الجرأة العنيفة التى كان محمد نجيب يتولى بها إدارة الحركة يكفى أن أؤكد أن فرق الجيش المرابطة فى الإسكندرية لم يكن قد تحدد موقفها بعد ، وأنه كان من المحتمل جدًّا – فى هذه الساعة المبكرة من الصباح – ألا تنضم للحركة .

وتركت محمد نجيب ، وبدأت أبحث عن على ماهر .

واتصلت بخمس نمر تليفونية خاصة بعلى ماهر، فلم أعثر عليه.

واتصلت برئيس حركة التليفونات ، وطلبت منه باسم القيادة العامة ، أن يصلنى بالقصر الأخضر ، فأوصلنى به مباشرة ، ولم أجد فيه على ماهر ،

وأخيرًا اتصلت بالأستاذ إبراهيم عبد الوهاب ، وأبلغته فى اختصار خطورة الحالة ، وطلبت منه أن يسرع إلى بيت على ماهر ، ويطلبنى من هناك فى تليفون القيادة العامة .

وذهب إبراهيم عبد الوهاب فعلاً إلى بيت على ماهر ..

ولكن مرت نصف ساعة ولم يتصل بى ..

واتصلت مرة ثانية بحرم الأستاذ إبراهيم عبد الوهاب ، واستطعت أن أحصل منها على التليفون الذى أستطيع أن أحادث فيه على ماهر ..

ورد على ماهر أخيرًا ..

ولم أقل له من أنا ..

إنما قلت : هنا القيادة العامة ، اللواء محمد نجيب يريد من رفعتك أن تأتى إلى القيادة لأمر مهم ، فإذا وافقت فسنرسل لك حراسة تصحبك إلى هنا .

وسكت على ماهر قليلاً ، ثم قال :

– الباشا فى الحمام ، استنى شويه لما نبلغه !!

وغاب رفعته قليلاً ، ثم عاد يقول : وبنفس الصوت :

– أنا على ماهر ، إنى لا أستطيع أن أحضر إلى القيادة قبل أن أفهم الموضوع ، أرسلوا لى مندوبين عنكم لأتفاهم معهم ..

قلت :

– سيصلك المندوب بعد دقائق ..

وحيلة « الباشا فى الحمام » حيلة قديمة عرف بها على ماهر ، حتى اشتهرت عنه ، وأصبحنا – نحن الصحفيين – نتحملها صابرين ، وكأننا مغفلون !!

وأخذت معى اثنين من ضباط القيادة ، وركبنا سيارة أحدهما ، وتبعتنا سيارة جيب تحمل جنودًا مسلحين بالتومى جن ، لحراستنا ..

وفى الطريق اتفقت مع صديقى ، على ألا نتكلم مع على ماهر باشا عن الملك ، أو مصيره ، أو أن الحركة موجهة ضده مباشرة ، إنما نكتفى بالحديث عن الفساد والتطهير ، والإصلاح ..

كنت أخاف أن يعارض على ماهر فى عزل الملك ، أو يتراجع عندما يقف على الهدف البعيد للحركة ..

واستقبلنا على ماهر فى الدور العلوى من داره فى الجيزة ..

وبدأ الكلام أحد الضباط ..

وتحمس فى عرض أهداف حركة الجيش ، حتى بدأ يتحدث عن مصير الملك فمددت قدمى وضغطت بها على حذائه من تحت المائدة ، حتى يخفف من حماسته ..

ثم رجوت على ماهر بأن يسمح لى أن أشرح له الموضوع ، بوصفى رسولاً للواء محمد نجيب ..

ولم أقل له إن الجيش يريدك رئيسًا للوزارة ..

ولكن قلت : إن الجيش يريدك أن تكون مستشاره ..

ثم بدأت أعرض مطالب الجيش الخاصة بالتطهير وبالدستور ، وفهم على ماهر أن معنى استشارته هو أن يكون رئيسًا للوزارة ..

وفى هذه الأثناء دخل الأستاذ حسن ماهر ، وقال : إن الأستاذ إدجار جلاد موجود فى غرفة أخرى ويريد أن ينضم إلى اجتماعنا ..

ونظر على ماهر إلينا ..

فأجاب الضباط : لا ، لن نتكلم إذا جلس معنا إدجار جلاد ..

وقال على ماهر : إن إدجار جلاد موجود معه من الصباح ، وإنه يتولى الاتصال بالسراى فى الإسكندرية ..

وعدنا إلى حديثنا ..

وقال على ماهر : إنه يقبل أن يتقيد بالمبادئ الدستورية ، ومبادئ التطهير التى قررها الجيش ، ولكن لن يستطيع الآن أن يتقيد بأية تفاصيل !!

وأبلغناه أن القيادة فى انتظار حضور الأستاذ مرتضى المراغى مندوبًا عن الوزارة .

فقال على ماهر : إنه يفضل أن ينتظر حتى تنتهى مقابلة مرتضى المراغى ، واللواء محمد نجيب ، ثم بعدها يحدد موقفه .

ثم قال :

– إننى لن أستطيع أن أتخذ أى خطوة إلا بعد أن يكلفنى الملك باتخاذها ، واسمحوا لى أن أصرح لكم بأنى سأبلغ الحديث الذى دار بينى وبينكم للسراى فى الإسكندرية حالاً ، وسيقوم جلاد « باشا » بتبليغه .

قلت : أرجو أن تترك مهمة تبليغ هذا الحديث لنا ..

قال : لا ، إن واجب الأمانة يدعونى أن أبلغه ، وأن أصارحكم بأنى سأبلغه ، وقمنا بالانصراف ..

وعند باب المصعد ، انتحى بى على ماهر ، وسألنى عن اسمى الضابطين اللذين كانا معنا ..

وقلت له الأسماء كاملة ..

وعدنا إلى محمد نجيب ، وأبلغته رأى على ماهر ، وقلت له : إنه يقبل تشكيل الوزارة ، إذا عهد إليه الملك بتشكيلها .

وقال محمد نجيب :

— عال ، ولقد أبلغت فريد زعلوك الذى كان يخاطبنى من الإسكندرية الآن بأن الجيش يريد على ماهر ..

وقد أدلى محمد نجيب بعد ذلك بحديث لوكالات الأنباء قال فيه : إن الجيش يريد على ماهر رئيسًا للوزارة .

واتصلت بعلى ماهر ، وأبلغته هذه الأنباء

وبقيت القيادة فى انتظار وصول الأستاذ مرتضى المراغى ، ثم أبلغت بوصوله إلى المطار فأرسلت القيادة سيارة حربية لحراسته حتى مقر القيادة ، ولكن مرتضى لم يكن فى المطار ، وقيل إنه فى وزارة الداخلية ، فأرسلت سيارات الحراسة إلى هناك ، ولكن مرتضى لم يكن هناك أيضا .

كان من المؤكد أن مرتضى وصل إلى القاهرة .

ولكن أين هو ؟

لقد بقى ضباط الحراسة فى انتظاره بمكتب مدير الأمن العام ما يقرب من ساعة ، ولكنه لم يظهر ، ولم يستطع مدير الأمن العام أن يقول أين هو ، فغضب الضباط ، وعادوا إلى مركز القيادة .

وفى هذه الأثناء – وأحب أن أتكلم بصراحة – بدأت أعصابى تخوننى ، لقد توهمت أن شيئا يدبر للحركة فى الخفاء .

وتوقفت الأحداث ، توقفًا مريبًا زاد من شكوكى ، فالإسكندرية لم تعد تتصل بنا ، ومرتضى المراغى لم يظهر بعد ، والمندوبون بين الجيش والسراى قد كفوا عن نشاطهم .

لابد أنهم يتخذون تدبيرًا ما ، ولابد أنه تدبير خطير !

وكنت قد اتصلت بمكتب « روز اليوسف » فى الإسكندرية ، فأبلغونى أن نجيب الهلالى قد صرح لوزارته ، بأننى مشترك فى حركة الجيش ، وأننى ذهبت إلى على ماهر أطلب منه تشكيل الوزارة ، إلى آخر القصة التى لم يكن قد انقضى على حدوثها ساعات .

وأحسست بحبل المشنقة حول عنقى .

وكنت التفت إلى الطائرات التى تحلق فى السماء ، خشية أن تكون طائرات إنجليزية أرسلها الملك فاروق للسيطرة على القاهرة والقبض

علينا ، رغم أن الإنجليز والأمريكان أكدوا فى الصباح الباكر أنهم لن يتدخلوا ما دامت أرواح الأجانب فى سلام ، وما دامت الحركة ليست موجهة إلى القوات البريطانية فى القنال .

وكان كل من فى القيادة يحس بما أحس به ، يحس بحبل المشنقة ، ويحس أن حياته – وربما حياة عائلته – معلقة بنجاح الحركة ، ولكننى كنت الوحيد فيهم الذى أتكلم عن شكوكى ومخاوفى ، أما هم فكانوا فى برودة الثلج حتى أن محمد نجيب وجد فى أعصابه القدرة ليقابل على أيوب مدى ساعة ونصف ليتذاكر معه ذكريات الصداقة .

وفلتت أعصابى منى فى اللحظات الأخيرة .

وطلبت من أحد الضباط أن يقطع حديث محمد نجيب وعلى أيوب ، ويدعوه لألقى إليه بمخاوفى .

وجاء محمد نجيب هادئًا ، ثابتًا ، ينفث دخان غليونه ، وكأن الدنيا كلها من حوله أمان .

قلت له : إن هذا الصمت الذى يحيط بنا لا يريحنى ، لابد أنهم يدبرون شيئًا !!

قال : وماذا تقترح ؟

قلت : أى شىء ، لتتحرك الجيوش ، لنسبقهم إلى عمل شىء ، أى شىء ، أنت أدرى ، أنت القائد !

وقال صوت بجانب محمد نجيب :

– كل شيء أعدت له عدته ، اطمئن !

وتركنا محمد نجيب وعاد إلى حديثه الممتع مع على أيوب !

وفى الساعة الثالثة بعد الظهر ، دق جرس التليفون فى إحدى حجرات القيادة ، وقال المتكلم :

– لقد استقالت وزارة الهلالى ، وعهد الملك إلى على ماهر بتشكيل الوزارة ، وعادت الحياة تنشط من جديد بين الحجرات .

ولم أشترك فى هذا النشاط .

ركبت سيارتى ، وعدت إلى بيتى ، لأرى السيدة الكريمة التى انخلع قلبها علىّ خلال هذه الساعات الطوال .

وارتميت على سريرى لأنام ، ولا أدرى كم نمت ، فقد كنت كمن قضى عشر سنوات واقفاً على أعصابه ، وآن له أن يستريح .

وفى المساء عدت إلى على ماهر فى منزله ، وتناولت معه طعام العشاء برفقة فريق من وزارته ، ثم اختليت به بعد العشاء ، لأروى له قصة الأزمة كاملة . .

ثم قلت :

– إن مطالب الجيش أبعد مما تتصور !!

قال :

– ماذا يطلبون مثلاً ؟

ولم أقل شيئا عن الملك ، بل قلت :

– إنهم يطلبون إلغاء البوليس السياسى مثلاً .

أجاب :

– خسارة ، دى أداة نافعة جدًا ..

قلت :

– إن طلباتهم من هذا النوع كثيرة ، وأرجو أن تختار وزراءك من الشبان المعروفين بكفاءتهم ، وقوة وطنيتهم ، حتى يساعدوك على تلقى هذه المطالب ،

واستدركت قائلاً :

– إنى كاتب عبرت دائمًا عن أفكار ضباط هذه الحركة ، وسأظل دائمًا كاتبًا ، ولا أريد إلا أن أكون كاتبًا ، ولذلك فإنى أستطيع أن أرى أكثر مما يراه غيرى .

قلت هذا لأنفى إشاعة ذاعت يومها ، عن أنى مرشح للوزارة ، وخفت أن تكون هذه الإشاعة قد طرأت على ذهن على ماهر ، وأنا أنصحه بأن يختار وزراءه من الشبان الوطنيين .

وتركت على ماهر .

ولم يقتنع معاليه–يومها–بمبدأ الاستعانة بوزراء شبان وطنيين ، خرجت من عنده، وكل ما فى رأسى أن الملك قد هُزم فى الموقعة الأولى.

وكانت الهزيمة الثانية للملك فى اليوم التالى ، عندما قبل مطالب الجيش كاملة رغم تطرفها ..

وكانت هزيمته الأخيرة يوم وقع وثيقة التنازل فى اليوم الثالث ..

ولكن لماذا تقرر التخلص من الملك ؟ .

ولماذا هزم بهذه السهولة ؟ !

هذا هو ما سجله هذا الكتاب .

إنه كتاب لم يسجل تصرفات الملك الشخصية الخليعة ، ولا نزواته الشاذة الفاضحة ، ولكنه سجل ما هو أهم .

سجل مصيبة مصر بهذا الملك .

ذات ليلة

ولا يؤرق كاتبنا فى الحياة شيئا سوى مرور عام جديد فى حياته ، يقف فيه مع نفسه ليسألها أين أنا وإلى أين ؟ وقد يجد الإجابة وقد لا يجد لها أو لا يتعرض لها ، وتمر السنوات وتمضى الحياة ، وذات ليلة من ليالى عيد ميلاد الكاتب الكبير إحسان عبد القدوس كتب عن نفسه فى شبه اعتراف على الورق يقول :

« أول يناير ..

إن عيد ميلاده يوافق يوم الاحتفال بعيد رأس السنة وقد تعود أن يحتفل كل عام بيوم ميلاده ، وكان يحاول دائمًا أن يقنع نفسه بأنه سعيد الحظ إذ يولد في يوم يحتفل العالم كله به .

وكان يحاول دائمًا أن يبدو سعيدًا في ذلك اليوم وأن يضحك وأن يضع قلبه على كف يده ليقدمه لكل من يعبر حياته ..

ولكنه لم يستطع أبدًا أن يكون سعيدًا ، وخصوصًا في ذلك اليوم .

انه يشعر في كل مرة يحتفل فيها بعيد ميلاده أنه نادم على ما فات وخائف مما هو آت ، وهو يشعر دائمًا أنه فشل وسيفشل ، وإن كان الناس يعتقدون ويؤكدون أنه نجح وسينجح .

إنه فاشل إذا قاس أعماله بما يريد أن يعمل ، وناجح بمقاييس الناس ، إنه إذا قاس أعماله فسيراها كلها سوداء ، لا يرى منها نورًا يهديه إلى الطريق الذى أتى منه أو الطريق الذى سيذهب فيه .

ولكن عن أى طريق يبحث ؟ وأى هدف يريد أن يصل إليه ؟ هل يريد أن يصبح كاتبًا ؟ هل يريد أن يصبح مشهورًا ؟ هل يريد أن يصبح غنيًا ؟ هل يريد أن يصبح سياسيًا ؟

إنه لا يدرى ، لا يدرى أين يذهب ، ولا من أين أتى ، لقد وجد نفسه يكتب دون أن يتعمد أن يكتب ، وقد أمسك بقلمه لأول مرة وهو في الرابعة من عمره وخط خطوطًا لا معنى لها على ورقة بيضاء ، فسأله والده باسمًا ، ما هذا الذى تخطه ؟

فأجاب في سذاجة الأطفال : « إنها أعواد من القش » !!

ونظر الوالد إلى الخطوط التي خطها الابن فوجدها حقيقة تمثل أعواد القش ، فابتسم فرحًا فخورًا بابنه الذي استطاع أن يرسم « القش » في مثل هذه السن !!

ولكن الابن عندما رسم خطوط القش لم يكن يقصد أن يرسمها ، وإنما أجرى قلمه على الورق بلا فكر وبلا هدف ثم نظر ليرى النتيجة فإذا بها أعواد من القش .

وهو من يومها يجرى قلمه على الورق ويترك له العنان ليكتب ويكتب وليس له من دافع إلا هواجس نفسه ونبضات قلبه ، ولو أغمض عينيه وهو يكتب لكانت النتيجة واحدة فهو لا يكتب بعينيه ولا برأسه ، إنما يكتب بأعصابه وروحه ، وبعد أن ينتهى من الكتابة ينظر إلى الورقة ليرى ماذا كتب ويفاجأ كما يفاجأ أى قارئ عادى وكأنه ليس صاحب القلم الذى كتب ، والناس تعجب بما يكتب كما أعجب به والده عندما رسم أعواد القش وهو فى الرابعة من عمره ، وقد تطور هذا الإعجاب حتى وصل به إلى مرتبة الشهرة ، وأصبح الناس يعتبرونه كاتبًا بين الكتاب وأصبحوا يثقون به ويدعونه صاحب رسالة وينتظرونه كل أسبوع على صفحات الجريدة التى يكتب فيها ، ولكنه هو نفسه لا يعجب بنفسه ولا يحس بالشهرة التى وصل إليها ، لأنه لا يعتبر نفسه كاتبًا

بل يعتبر نفسه طفلاً بلا عقل ، يجرى قلمه على الورق بلا إرادة وبلا وعى ولتكن النتيجة ما تكون .

وهو يخشى ثقة الناس به ، لأنه يعتقد أن هذه الثقة ليست قائمة على أسس فى نفسه يستطيع أن يتحكم فيها ، بل هى قائمة على ذلك الإلهام الذى يدفع بقلمه على الورق دون وعى منه ، وهو إلهام لا يستطيع أن يتحكم فيه ولا أن يحركه عندما يريد ، بل هو نوع من النبضات العصبية التى تثور فى نفسه ثم تسرى إلى يده فترتفع من تلقاء نفسها لتمسك بالقلم وتكتب ، ولذلك فهو يخشى أن ينتظره أحد ليقرأ ما يكتب ، لأن هذا الإلهام لا يتقيد بمواعيد صدور الجريدة ولا بمواعيد المطبعة ، بل هو يتحرك فى أوقات لا ينتظرها هو نفسه ، وقد لا يتحرك أبدا .

فقد يمر أسبوع ويده لا تريد أن تمتد إلى القلم ، فى حين أنه يجب أن يكتب لأن المطبعة تنتظر ، وهنا تمر عليه أسوأ أيام حياته فهو لا يستطيع أن يكتب عندما يريد ، بل إن أصدقاءه الخصوصيين يعلمون عنه أنه لا يعرف من قواعد اللغة العربية ما يكفى لأن يضع كلمات بجانب بعضها تتكون منها جملة مفيدة ، إنه فى هذه الحالة يجن وقد يبكى ، وأحيانًا يرق إلهامه لدموعه فيدفع قلمه ليكتب ، وأحيانًا يعصاه إلهامه فيختفى عن الناس وعن أصحاب جريدته معتذرًا بمرض أو بحدث .

فهو إذن ليس كاتبًا فى نظر نفسه وإن كان كاتبًا فى نظر الناس !!

هل يريد أن يكون سياسيًا ؟ !

إنه لم يشعر بنفسه سياسيًا أبدًا ، بل إنه يرى أحيانًا فى السياسة معميات يصعب عليه فهمها ويضل فيها عقله ، وهو ينظر إلى السياسيين ، وكأنهم قوم غرباء عنه ليس لهم عقليته ولا روحه ، وحينما يجلس بينهم يحس أنهم يتكلمون لغة لا يفهمها بل ويمقتها ، ولكنه إن أنكر على نفسه صفة السياسى فلا يستطيع أن ينكر أنه وطنى وهو يفهم الوطنية كما يفهمها رجل الشارع ، يفهمها واضحة جلية مستقيمة كحد السيف ، فلا يحاول أن يدس بوطنيته فى سواد الدبلوماسية ولا فى همسات الدوائر العليا .

وهذا الفهم للوطنية لا يحتاج إلى ذكاء نادر ، ولا إلى موهبة شاذة ، ولا إلى فكر خارق للعادة ، بل هو فهم بسيط لا يتميز به عن أى رجل ساذج من الشعب ، بل إن الفلاح فى حقله قد يقيس الوطنية بأقوال العمدة ، والعامل فى مصنعه قد يقيسها بما يطالب به من تحسين حاله ، أما هو فوظيفته مجردة لا تكلفه إلا أن يحس ، فهو يطالب بالجلاء - مثلاً - بنفس الطريقة التى يحاول بها كلب مقيد أن يحطم قيده ، ولو أحس كل أفراد الشعب بأنهم كلاب مقيدون لتم الجلاء منذ عشرات السنين !!

ورغم هذه البساطة أو السذاجة التي يفكر بها ويكتب بها في شئون وطنه ، فإن الناس قد اعتبروه سياسيًّا واعتبره البعض « سياسي داهية » !! .. فحملوا ألفاظه أكثر مما كان يعنيه ، وأخذوا حملاته التي لا يدفعه إليها إلا وفيض أعصابه ونور قلبه ، أخذوها مأخذًا شتى ، ليست وطنية بل سياسية ، وخرج من ذلك بمبدأ آمن به وهو : « كلما كنت بسيطًا .. بدوت معقدًا في نظر الناس ويوم أن تكون معقدًا ستبدو بسيطًا » !!

هل يريد أن يكون غنيًّا ؟

لقد صار فعلاً غنيًّا لو أن الغنى يقاس بالمال ، فقد كان دخله منذ عامين خمسة وعشرين جنيهًا في الشهر ، ودخله في شهر ديسمبر الحالي وصل إلى مائتين وخمسين جنيهًا – بلا مبالغة – ولكنه منذ عامين كان يصرف ثلاثين جنيهًا في الشهر ، وهو اليوم يصرف ثلاثمائة جنيه ، فهو غارق في الدين في كلتا الحالتين ، وهو في كلتا الحالتين ليس سعيدًا ، وكلما زاد دخله .. كلفه بحثه عن السعادة أكثر ..

إنه إذن كاتب وليس بكاتب ، مشهور وليس بمشهور ، سياسي وليس بسياسي ، غني وليس بغني ، وهذا هو سر روحه التائهة ، وقلبه القلق ، وفكره الشارد ، والسؤال الذي يبحث عنه هو :

– هل أنا لا أقدر نفسي حق قدرها ، أم أن الناس يقدرونني أكثر من قدري ؟ !!

إن سيدة واحدة تشاركه البحث عن هذا السؤال ، وهي لا تبحث عنه بين الناس بل تبحث عنه في نفسه ، وكلما ظنت أنها وصلت إلى غورٌ نفسه بدت لها فيه أغوار جديدة ، إنه يخشى عليها أن تتوه معه ، وهى تخشى عليه أن يتوه منها !!

إنها السيدة الوحيدة التي تحتفل معه بعيد ميلاده ، فتصمت معه طول الليل لتتركه يحاسب نفسه ، فإذا ما انتهى من الحساب — وهو عسير — بكى وضمها إلى صدره ثم حمد الله !!

قاسم أمين الأدب

وقال عنه الكاتب الكبير نجيب محفوظ :

« في سن التاسعة تقريبًا انتقلت مع أسرتي من حي الجمالية إلى الشارع الذى ولد فيه بحى العباسية ، وتعرفنا بأسرته ، وأذكره — حينذاك — بين الطفولة والصبا يلعب في الشارع إلى أن انتقل مع أسرته إلى العباسية الشرقية فغاب عن عيني ، ثم فوجئت به بعد سنوات محررًا لامعًا في مجلة روز اليوسف ، وأعجبتني مواقفه الصحفية الجريئة تجاه السراى والإنجليز والوفد ، ثم الثورة بعد ذلك وتحمله الإهانات والمعاناة من أجل مواقفه ، وقد استطاع — خلال فترة إدارته لروز اليوسف — أن يجعل العاملين في مؤسسته أسرة واحدة يندر وجودها في أية مؤسسة أخرى .

على الجانب الأدبى أعتبره فى طليعة الروائيين العرب ، تصدى لمشاكل كبيرة ، وهوجم كثيرًا لجرأته الشديدة ، وتمكن بأسلوبه البسيط الجذاب أن يكون مدرسة خاصة به مما جعلنى أسميه « قاسم أمين الأدب » حيث جعل المرأة المصرية محور كتاباته ، والغريب فيه أنه أجاد كتابة القصة القصيرة بنفس إجادته للرواية الطويلة .

ولا ينسى جيلنا – الجيل الثانى للروائيين – أنه مؤسس سلسلة « الكتاب الذهبى » التى أتاحت لنا الانتشار حيث كانت تطبع فى ١٦ ألف نسخة فى الوقت الذى كانت نسخ أعمالنا لا تتعدى الألفين لدى أى ناشر آخر ، كما أنشأ – مع الراحل يوسف السباعى – نادى القصة والمجلس الأعلى للفنون والآداب .

وإعجابى بقصصه ورواياته شجعنى على كتابة السيناريوهات لبعضها حين تحولت إلى أفلام كتجربتى فى « الطريق المسدود » و« إمبراطورية ميم » ، ولا أذكر أنه تدخل يومًا فى عملى أو صادر رؤيتى السينمائية .

وقد ظل طوال حياته أخًا كريمًا عذبًا أجد لديه الصفاء والحب .

« لا أحد يعرف كل شىء .. ولا أحد قال كل شىء .. وإنما بعض الشىء بعض الوقت أى الحقيقة .. إلا قليلاً »

أنيس منصور

* أنيس منصور الذى أعرفه

عندما التقيت به لأول مرة فى حياتى ، كنت كالورقة البيضاء .

كان هو رئيساً لتحرير مجلة آخر ساعة ، وكنت طالبة فى السنة النهائية بكلية الإعلام جامعة القاهرة ، أتدرب فى المجلة التى يرأس تحريرها ، وكنت أدرس بالنهار وأعمل فى أيام الإجازات وأوقات الفراغ ، وعندما طلب منا أستاذ البحث العلمى فى الكلية عمل دراسة عن شخصية أدبية صحفية كبيرة كموضوع لبحث التخرج ، لم أجد أمامى أفضل ولا أقرب من الكاتب الكبير أنيس منصور ، الذى كان مصدرى الوحيد لمادة البحث ، والذى حصلت فيه على درجة الامتياز ، وقام الأستاذ أنيس منصور بمنحى كل كتبه كهدية لى ومكافأة

على البحث الذى قدمته عنه ليكون مشروع التخرج من الكلية .

وعرفته وتعلمت منه وتأثرت به ، وصار علامة من علامات الثقافة فى بدايات حياتى ، مثلى مثل جيل كامل من الشباب الذى استحوذ عليه الكاتب الكبير لما يتمتع به من أسلوب ساحر جذاب ، فإنه يصحبنا إلى بلاد العالم وما فيها من طرائف وعجائب ورحلات فكرية ، فما أجمل الرحلات الفكرية عندما تصاغ فى قالب سهل ممتع ليس فيه صناعة أو كلفة ، إنه يتحدث إليك وحدك فى بساطة .

وعندما نقرأ أنيس منصور ونحن جالسون فى مقاعدنا أو مستلقون على سريرنا نجد أنفسنا فجأة فى الهند ، أو هونج كونج ، وفجأة نرى أنفسنا فى أدغال أفريقيا أو صقيع سيبريا .. فرحلاته المتعددة ، ممتعة ، فأنيس منصور يتميز بالأسلوب الأخاذ والفكر المتنوع فى شتى المجالات ، ويعتبر من أكثر الكتاب غزارة فى الإنتاج الأدبى والفكرى والفلسفى ، فهو مفكر وكاتب وسياسى وفيلسوف ، ليس لأنه تلميذ نجيب للأستاذ عباس محمود العقاد، ولكن لأنه أراد أن يكون كل هؤلاء .

وقد التقيت به أكثر من مرة وأيقنت أن كلماته هى أفكاره ، وأفكاره هى كلماته ، وأحاديثه معى كانت أشبه برحلات طويلة داخل أعماقه أحيانًا ، فهو – دائمًا – فى حالة ارتحال بين الأفكار والعلاقات والناس .

وذات يوم سألته : كيف تكتب ، ولماذا تكتب ، ومتى تكتب ، ومن أين تأتيك أفكارك ؟

* قال : إن كل فكرة هى مشروع للكتابة ، مشروع قضية ، وكل يوم أصحو فى الخامسة صباحًا ، أغسل يدى ولابد أن أغسل يدى وأبلل عينى بالماء وأتجه إلى المكتب ، وأزيل كل ما فوق المكتب ، كل قلم ، وكل ورقة ، وكل ما أجده يعترض عينى إذا نظرت أمامى وأطفئ نور السقف حتى إذا نظرت فلا شيء من الكتب التى على الجدران يجذب عينى ، فأنا لا أريد أن أنظر إلى شيء ، ولا أريد أن أركز على شيء ، أما الورق فلابد أن يكون أبيض بلا سطور طويلاً ناعمًا ، أما القلم فأمامى عشرات الأقلام ، لابد أن يكون حبرها أسود قاتمًا ، ناعمًا تنزلق على الورق بسهولة ، وألا تكون أسنانها مدببة ، وألا تكون غليظة ، فإن كانت ناعمة جدًّا سبقتنى على الورق ، وإن كانت خشنة أو جافة أو حادة فإنها تعرقل كتابتى ، وأنا أكتب بسرعة التفكير بالضبط ، ولذلك فالحروف كبيرة وخطى ليس واضحًا وأكثر الكلمات بغير نقط ، فأنا أكاد لا أرى ما الذى أكتبه ، فلم أرث عن والدى جمال الخط ، فقد كان خطه فارسيًّا جميلاً أنيقًا .

ويقول الكاتب الكبير : ليس من الضرورى إذا جلست إلى الكتابة أن أجد بسهولة ما أكتبه ، وعندما تتعذر الكتابة فإننى أفضل أن أقرأ فى أى موضوع ، وتمضى الساعات أستمتع بما أقرأ ، أو تمضى الساعات لا أعرف بالضبط ما الذى أقرؤه ، وفجأة أجدنى أكتب موضوعًا آخر غير الذى كان فى نيتى أن أكتبه .

وقد أجلس لكى أكتب عددًا من المقالات القصيرة فأجدنى قد كتبت قصة لا علاقة لها بكل ما كان يدور فى رأسى ، وإنما تكون فكرة هذه القصة قد راودتنى عن نفسى منذ وقت طويل ولم أستسلم لها ، ثم إذا بى أجدنى فجأة مستعدًا لكتابتها كاملة .

وكما أننى لا أطيق أن أرى أمامى وأنا أكتب ، فإننى أيضًا لا أستطيع أن أستمع إلى الموسيقى فهى تبعثرا اهتمامى وتسحبنى كموج البحر بعيدًا عن الشاطئ وقد أكون هاديًا ، وقد أكون غاضبًا ، ولكنى دائمًا أحنى رأسى للذى يجئ ويتوارد .

ولا أعرف من أين تجئ الأفكار ، ولكنها تجئ ، ولا أعرف كيف يحدث أن أكتب في جلسة واحدة ألف سطر ، وفى أيام لا أكتب سطرًا واحدًا ، وإذا وجدتنى عاجزًا عن الكتابة فإننى لا أعصر رأسى ، وعندى إحساس دائم بأن الذى كتبته من الممكن أن يكون أفضل وأطول . فما من مقال كتبته إلا أحسست أننى مخنوق تمامًا كأننى أرتديت ملابس طفل صغير ، ثم إننى حريص على أن أبدو مقبولاً وفى نفس الوقت ألا تتمزق هذه الملابس ، بعد أن أصبحت أطول وأعرض ، ثم أعود إلى الذى كتبته فأوضحه أو أضيف إليه .

أنا لست مشغولاً بالصورة النهائية لكل الذى أكتبه ، ولكن الذى يشغلنى هو ما أفكر فيه وما أكتبه الآن ولا أكاد أكتبه حتى

أنساه ، ولكن عقلى يروح ويجىء ويلف ويدور ويعلو ويهبط ويلقى ضياء على ما سبق أن رأيت وتأملت وقرأت .

وكما يحدث عندما أجلس للكتابة أن أزيل من أمامى الكتب والأقلام والورق والعقاقير لكى أرى المكتب خاليًا تمامًا ، وكما أحب أن أنظر من النافذة فلا أرى إلا مساحات لونية وضوئية ولا تتركز عينى على شىء وأذنى على شىء ، فإننى هكذا أيضًا عندما أشغل نفسى بالتهيؤ لكتابة شىء كبير ، دراسة كبيرة ، كتاب متكامل ، لا أحب أن أنشغل عنه بشىء آخر .

إننى أحتفظ فى جيبى وإلى جوارى فى فراشى بنوتة صغيرة وقلم ، فكثير من الأفكار مثل الطيور المهاجرة ، تحط على رأسى ، ولذلك لابد أن أسجلها بسرعة كأن رأسى جهاز تسجيل مفتوح دائمًا وهو يلتقط كل الأصوات على الموجات ، ولا أعرف أين مصدر هذه الأصوات ولا كيف جاءت ! لذلك فإننى أبادر بتسجيلها بسرعة ، ولكننى وجدت أن القلم والورق إذا كانا إلى جوارى نهضت رغبتى فى أن أكتب ، وهذا يقلقنى ويباعد النوم عن عينى ، ووجدت أن كل الأفكار التى خطرت على رأسى لن تضيع ، سوف تعود فلا شىء يموت ، وإنما كل ما فى الكون يتوالد ويتواصل ويكمل بعضه بعضًا .

* * *

* قلت له : الكاتب أنيس منصور من أشهر الكتاب الذين هاجموا المرأة فى كتاباتهم حتى أنه لقب بـ« عدو المرأة » ، مثله مثل كاتبنا الكبير توفيق الحكيم إلى أن استطاعت المرأة بذكائها أن تدخله سجن الزوجية الذهبى .. فهل الذكاء صفة يجب أن تتصف بها المرأة لنجاح العلاقة الزوجية ؟

* قال : لا أحد يريد علاقة غبية .. يستوى فى هذه العلاقة أن يكون زميل أو صديق أو زوج أو زوجة ، الغباء مرفوض لأنه معوق ولأنه قبيح ، الشخص الغبى هو شخص متخلف ومرهق ، لكن من يريد أن يتسلط أو أن يتملك أو أن يرتبط بشخص لا حرية له ولا قرار له ويعتمد عليه اعتمادًا كاملاً .. لا شك أنها تكون علاقة ضعيفة متواكلة ، علاقة غبية .

أما الذكاء فهو مطلوب .. فالواحد يطلب لنفسه أن يكون ذكيًا ويطلب فيمن حوله ممن تربطهم به أى صلة .. سواء زمالة ، أوصداقة ، حب وزواج ، أبوة ، وبنوة ، أن تكون علاقة مستنيرة ، علاقة يستخدم فيها العقل ويجد حسن التصرف . لأنه ما معنى الذكاء ؟ الذكاء معناه حسن التصرف ، فإذا كان لأحد شريك فى عمل فلابد أن يكون ذكيًا .. بمعنى أن يحسن التصرف ولا يرتبك فى المواقف الصعبة فإذا كان هذا حاصا بالزوجة وهى أكثر ارتباطًا وأهم وأعمق ، فإن ذكاء الزوجة محسوب للزوج وليس محسوبًا عليها ، لأنه فى هذه

الحالة يختار الزوج صديقًا أو عشيرًا ذكيًا بمعنى أنه اختار شخصًا مضيئًا ، يضيء لنفسه ويضئ للزوج أيضًا .

البعض يخاف من الزوجة الذكية .. لأنه لا يستطيع أن يتسلط عليها ، إلى جانب أن الزوجة الذكية تحسن التصرف مما يجعل لها شخصية قوية ، بعض الأزواج يخاف من الشخصية القوية للزوجة أو الندية التى تظهر للزوجة ، بينما لصالح الرجل الذكى أو الرجل المستنير أن تكون زوجته مستنيرة أيضا ، أولا لأنها تحسن التصرف وتحسن تقديره وجهوده وعمله ومتاعبه وطموحاته ، الذكاء إذا كان لصالحى لا يخيفنى وإنما إذا كان ضدى فهو يخيفنى ، ولذلك فالمثل يقول : « عدو عاقل خير من صديق جاهل » . لأن الجهل والغباء يتسببان فى إفساد علاقة بين صديق وصديقة ، لكن العدو الذكى ممكن ألا يضر ، وإنما يحسن التصرف ويعطى فرصة لى أن أستخدم ذكائى ، فما بالك إذا كان الصديق ذكيًا .

* قلت : ما هو إذن المطلوب من الزوجة ؟

* قال : متاعب الذكاء لا تخطر على البال ، لو فرضنا الحياة الزوجية شركة .. فأيهما يفضل الإنسان أن يكون شريكه ذكيًا أم غبيًا ، أو عاقلاً أو مثقفًا أو عاقلاً مثقفًا . لابد أن الاختيار يقوم على الفهم وحسن التقدير . ومن معانى حسن التقدير « التضحية مثلا » لكن الذى يريد زوجة جاهلة هذا الرجل يريد

امرأة « قعيدة » أو خادمة أو عبدًا ذليلاً ، هذا رأيى . من يريد الزوجة الغبية هو رجل غبى ، لأن اختيارى هو جزء من تفكيرى .

* قلت له : ما هى مواصفات المرأة الذكية ؟

* قال : حُسن التصرف ، لكن أحب أن أؤكد أن الذكاء لا يعتبر ميزة كبيرة لأن هناك طيورًا وحيوانات ذكية ، ممكن أن يكون الإنسان عاقلاً جدًّا وحصيفًا جدًّا ولكنه لا يحسن التصرف ! مثال الحادثة الشهيرة لـ « نيوتن » وهو عقلية فذة فى مجال علمه .

كان لديه كلب صغير وكلب كبير ، وكانا يسببان له إزعاجًا ، فأقام فى الحائط فتحة كبيرة للكلب الكبير وفتحة صغيرة للكلب الصغير ، وفات عليه أن الفتحة الكبيرة للكلب الكبير يمكن أن يمر منها الكلب الصغير ! وهذا ليس غباء ، لكنه ليس على درجة كبيرة من الذكاء وإن كان يعتبر من العباقرة .

ومثال ثان : الكاتب والشاعر الأمريكى الكبير أديسون كان لديه حظيرة للأبقار ، وعندما يكون مشغولاً فى القراءة والكتابة يحب أن يتمشى ويصطاد العصافير ويلعب مع الحيوانات ، وخطر على باله أن يخرج من حظيرته أحد العجول ، فأخذ يشد أحد العجول فلم يخرج ، وجاء ابنه يحاول معه فلم يخرج ، ثم نادوا على الخادمة ، فأخرجت العجل من الحظيرة . ماذا فعلت ؟ إنها وضعت أصبعها فى فم العجل فأخذ يرضعه وخرج معها ، فهى حيلة فاتته ولم تخطر

على باله ، وهذه الحيلة قامت بها الأميرة ديانا عندما قدمت ولى العهد « ابنها » للأسرة المالكة ابنها يبكى وهى جالسة فى وسط الناس فوضعت أصبعها فى فم طفلها فاعتبره الجميع عملا بدائيا ، لكن هو عمل غريزى لأنها لم تستطع أن ترضعه ، فالطفل أخذ يرضع فى أصبع أمه وتوقف عن البكاء ، هى ذكية ولكنها فاتتهم .

وممكن يكون الإنسان عبقريًا وليس ذكيًّا ، فالذكاء صفة يشترك فيها الإنسان والحيوان وليست صفة كبيرة . إنها موهبة خاصة لا نعرف عنها شيئًا .

والذكاء وحسن التفكير والثقافة والتجربة بعضها موروث وبعضها مكتسب ، كل هذه الصفات أعتقد أنه من الضرورى تواجدها كشرط لنجاح علاقة صعبة ، والعلاقة الزوجية من العلاقات الصعبة .

* * *

وأنيس منصور له رأى فى المرأة قال فيه : المرأة هى أمى وأمك ، وأختى وأختك ، وهى زوجتك ، وهى ابنتك ، إنها نصف المجتمع أو أكثر من النصف ، إنها إنسان لم يعط بعد الفرصة ليكون له تجارب وقدرة على الكفاح وعلى الحياة القاسية .

أما المرأة كصديق وزوجة فلابد منها ، ولا غنى عن المرأة أبدًا ، ولابد أن يكون لك امرأة ، لابد أنك إذا لم ترد ذلك صرخت

أصوات عالية مدوية فى جسمك وعقلك وفى المجتمع الذى تعيش فيه ، ولكن لا تجعل المرأة كل حياتك مهما كانت .

ويعترف الكاتب أنيس منصور : لا تعط أمك كل الوقت ولا زوجتك ولا حبيبتك أبدًا ، أعطها بعض الوقت .. إن المرأة تكره الرجل الذى يعطيها كل وقته وتكره الرجل الذى لا يعطيها شيئًا من وقته. إعطها بعض الوقت لكى تطمع هى فى الزيادة، لكى يكون عندها أمل فى أن تراك أكثر، وأن تجلس إليك أكثر. اجعل المرأة على أمل دائمًا، اجعل المرأة تفكر دائمًا فى أن تكون لك.

* أما عن رأيه فى الأصدقاء ؟

* فيقول أنيس منصور : لابد أن يكون لك أصدقاء ، إن الحياة بلا صداقة ولا حب صعبة قاسية ، إنها باردة تمامًا كالنوم على الرصيف أو فى الشارع ، والأصدقاء هم النور والهدوء وهم الرصيد الذى تضعه فى البنك لمواجهة الأيام السوداء ، وإذا تحول الأصدقاء إلى أعداء فهم أقسى من كل الأعداء لأنهم يعرفون عيوبك ويعرفون مزاياك ، إنهم كالجنود الذين ينتقلون من معسكرك إلى معسكر الأعداء ، إنهم يعرفون مداخلك ومخارجك وأين ترابط قواتك ومدافعك وأوهامك وأحلامك وشجاعتك وخوفك ، والمثل القائل :

احـــذر عـــــدوك مـــرة   واحذر صديقك ألف مرة
فلربمــا انقلـــب الصـــديق   فــكان أعــرف بالمضرّة

وهذا معناه :

أنه يجب أن تعتدل فى صداقة أصدقائك فقد ينقلبون أعداء ، ويجب أن تعتدل فى عداوة أعدائك ، فقد ينقلبون أصدقاء هذا المثل صادق تمامًا .

وأخطر الأعداء على الإطلاق للإنسان هو نفسه ، ويقول أنيس منصور : لا تجعل من نفسك عدوًّا لنفسك ، لا تسخرْ من نفسك ، لا تهزأ بقدرتك ، لا تهزأ بمواهبك ، لا تيأس ، فاليأس معناه أنك لا تصلح لشىء ، لا تصلح للمقاومة ، اجعل نفسك صديقًا لك واعتمد عليها وأعطها الثقة ، وبذلك تضم صديقًا إلى أصدقائك ، وتحرم أعداءك عدوًّا قاسيًا يعرفك ولا يتركك ليلاً ولا نهارًا .

* ويقول أنيس منصور : إن الحياة التى نعيشها يجب أن نعيشها ويجب أن نقاوم وأن نكافح الموت فى كل صورة ، فالفشل موت والخوف موت والاستسلام موت ، يجب أن نعيش هذه الحياة ، وألا نحنى رأسنا إلا للشىء العظيم الشىء الصادق .

* * *

والكاتب أنيس منصور من الكتاب الذين أثروا حياتنا الثقافية بأكثر من مائة كتاب ورواية وقصة قصيرة ودراسة ومسرحية وترجمات ..

عشق القراءة والكتابة ليفيد بها جمهوره الكبير من قرائه عن طريق مواقفه اليومية أو مفاجآته الأدبية بعمل كتاب جديد ولا أعتقد أنه قال كل شيء ، ولكن يبقى هناك شيء ما لم يقله بعده ولم يقل عنه ولم يعرفه الناس ، فالكاتب أنيس منصور مهما ألقيت عليه الضوء أو وقفت معه بين سطوره أو كلماته ، فمازال هناك الكثير والكثير جدًّا لا يزال يستحق أن يقال ويكتب عنه ، ولكننى اخترت بعضًا من أفكاره وآرائه وأقواله وأحاديثه والتى تشبه الاعترافات لى ، لكى أضعها بين دفتى كتابى الذى لا يمكن أن أغفل فيه كاتبًا كبيرًا مثل أنيس منصور دون أن يكون كوكبًا ساطعًا من هؤلاء الكواكب المضيئة الذين أثروا بفكرهم وثقافتهم حياتنا الفكرية والثقافية فى عصرنا الحالى .

* * *

عندما تحاصرنى أفكارى
أجد نفسى أعيش مع أبطال رواياتى

فتحى غانم

* أنا كاتب كسلان جدًّا

هو من أكثر الكتاب الذين أثارت رواياتهم جدلاً ونقاشًا ، عندما تحولت إلى أفلام سينمائية وعندما عرضت على شاشة التليفزيون ، رغم أن ماكتبه كان خيالاً فى خيال ، إلا أن القارئ لرواياته ، والمشاهد لأفلامه ، أعتقد أنه يروى أحداثًا وقعت بالفعل .

وقد أثارت رواية « الرجل الذى فقد ظله » ورواية «زينب والعرش» كثيرًا من الجدل والمناقشات التى تربط وقائع الروايتين بأشخاص حقيقيين ، ولكن الكاتب فتحى غانم نفى بشدة أن تكون رواياته لها أى صلة من بعيد أومن قريب بأشخاص فى الواقع، بل هم من صنع خياله.

ويقول الكاتب الكبير فتحى غانم : عندما تؤرقنى فكرة ما ، أطلق لنفسى العنان لأن تكون على سجيتها وأقول ما أشعر به ، فلا أبحث عن

شىء معين فى كتاباتى . ولا أهدف لغرض ما ، وإنما كل ما أكتبه هو ترجمة حقيقية لما أحسه وأعيشه من خلال المجتمع والناس المحيطين بى .

إننى أشبه نفسى بالرحالة « كريستوفر كولمبس » عندما أبحر بسفينته أملاً فى الوصول إلى بلاد الهند ، ولكنه يفاجأ بأنه اكتشف القارة الأمريكية ! هكذا أنا – أحيانًا – عندما أبدأ فى مشروع جديد للكتابة !

والحوار مع الكاتب المبدع فتحى غانم ينقلنا إلى عوالم السياسة والفن والأدب فى « سلاسة السهل الممتنع » .

* فى البداية سألته : ما هى رؤيتك ككاتب سياسى وأديب لما يحدث فى مجتمعنا اليوم ؟

* قال : العالم أصبح قرية صغيرة ، إننا نستيقظ فى الصباح فنعرف كل الذى يحدث فى أنحاء العالم ، وهذا الإحساس بأننى محاط بكل هذا يجعلنى أسأل نفسى : أين أنا وسط كل هذا ؟ فأنا لن أكون أسيويًا أو أوربيًا أو أمريكيا ، كلما كان العالم قرية صغيرة .. شعرت بأننى يجب أن أدخل حارتى وأثبت فيها وجودى ، كلما كان الاتجاه إلى العالمية .. حدثت ردود فعل الخصوصية ، وهذه الرؤية تحتاج إلى وقت لتفهمها وتطبيقها ، ودائمًا لدى إحساس بهذه الفردية الموجودة فى الإنسان ، والتميز والاحترام الذى يجب أن يحصل عليه كل إنسان بصرف النظر عن مركزه الاجتماعى ، أو ثروته أو طبقته .

يكفى أنه آدمى ، وهذا ما جعلنى فى وقت مبكر من الستينات أكتب رواية « الغبى » وقد أعنى بالغباء ذلك الشىء المحجوب الذى لا نستطيع أن نرى ماوراءه ، وكان كل ما يهمنى هو معرفة هذا الإنسان وما يدور بداخله ، ذلك العالم الخاص جدًّا .

* قلت : من أين تستقى أفكارك ؟

* قال : عند ما أبدأ فى كتابة رواية جديدة تتحدد لى فكرة عامة لها ثم أقوم برحلة حول هذه الفكرة . وهذه الرحلة قد تلقى بى إلى شواطئ لم تكن فى خيالى مثلما حدث للرحالة كريستوفر كولمبس الذى قال أنا ذاهب للهند ، وفجأة وجد نفسه فى أمريكا ، أحيانًا أصل للفكرة التى أريدها وأحيانًا أخرى أجد نفسى مع فكرة ثانية وأثناء الرحلة قد يتغير المسار .

* قلت : ما هى الفكرة التى تشغلك الآن . وتريد أن تكتب عنها ؟

* قال : ردود الأفعال ، بداخلى مرتبطة بما يحدث فى المجتمع الذى أعيش فيه ، مصر تعيش حاليًا يقظة دينية بشكل حاد فى درجات من الاعتدال إلى التطرف ولها ألوان متعددة . وتاريخنا فيه الدين أساسى منذ الفراعنة ، إنه جزء من شخصيتنا ، فالإحساس الدينى لدى الأوربيين مسألة طارئة وجديدة وإنما بالنسبة للمصريين الدين جزء من شخصيتنا منذ أيام إخناتون والتوحيد حتى أن الأديرة اخترعت فى مصر ، ولا أستطيع أن أعيش فى مصر دون

أن تغلى بداخلى كل هذه الأمور كنوع من الفورات ، وفى نفس الوقت هناك عالم ثان من المادية والمصلحة والأنانية والجشع ، يحدث لهذين العالمين التقاء من خلال فكرة تدور فى رأسى حاليًا ، وهذا الاصطدام يصنع بداخلى فنًا.. ففى هذه الأيام أتابع الصراعات الموجودة فى كل البشر المحيطين بى !

* قلت للكاتب الكبيرة : كيف كانت بداية رحلتك فى الكتابة ؟

* قال : أول خطوة لى فى رحلة الكتابة كانت فى مواجهة الموت ، كنت فى سن المراهقة فى الثانية عشرة من عمرى وكان يوم عيد — ثانى أيام عيد الفطر — أرتدى بدلة ضابط وفى يدى سيف من صفيح أبارز به أخى الذى يصغرنى بعام ونصف العام ، وكانت له بدلة ضابط وفى يده سيف من صفيح ، ورأيت أبى عائدًا إلى البيت ساعة الغداء فصعدت خلفه حتى دخلت وراءه حجرته لم أتبين أنه يعانى من شيء لم يطلب مساعدة ، كان يخلع سترته عندما سقط أمامى على السرير ، وبعد دقائق ارتفع العويل فى البيت فقد مات ، ضربة غادرة لم أستعد لها .

كنت لا أعرف أن مثل هذا القدر يصيب البشر فى عالم مازلت فيه حدثًا صغيرًا ، وكان لابد أن تؤثر الصدمة فى نفسى ، ولعلى أردت أن أتقمص شخصية الأب الغائب ، وكان قد قضى عامه الأخير فى تأليف كتاب عن « جان دارك فى سبيل الوطن » وكنت أذهب

معه إلى مكتبة النهضة فى شارع المدابغ ليراجع ملازم الكتاب قبل نشره .

جلست على مكتبه وامتدت يدى إلى أقلامه وأوراقه وتطلعت إلى مكتبه الكبير ثم كتبت قصيدة رثاء للعقاد نشرتها الصحف فالتفت حولى أصدقاء والدى من بينهم عبد الرحمن صدقى وعلى أدهم وطاهر الجبلاوى وسيد قطب ، وورثت من أبى حلما لم أستيقظ منه حتى الآن .

دخلت عالم الكتابة ـ ذلك العالم السحرى حيث التعبير عن أحزان الموت بأبيات من الشعر أفضل من التعبير عنها البكاء والدموع ، وحيث صداقة الشعراء والأدباء وأصحاب المبادئ السياسية تسمو فوق صدمات الموت وتدعو إلى مواصلة الحياة . أعتقد أن هذه هى البداية المباشرة لدخولى أرض الأدب والقلم ، وقد تبينت أنى أحمل معى أدوات الرحلة ومعدات خوض المغامرة منذ الطفولة .

وعندما سألت كاتبنا عن أهم القراءات التى أسهمت فى تكوين فكرة فى بداية حياته قال لى : أول ما نبهنى إلى أدب الغرب كان مصطفى لطفى المنفلوطى فى ترجمته مجدولين «تحت ظلال الزيزفون» وقرأتها مبكرا بينما كنت أقرأ قصص أليس فى بلاد العجائب وسندريللا، ثم قرأت روايات الجيب والقصص البوليسية: رد كامبول وارسين لوبين وشيرى بيبى، وبالمصادفة قرأت ترجمات البعث

لتولستوى، والجريمة والعقاب لديستوفسكى، والفرسان الثلاثة لالكسندر ديماس، وغادة الكاميليا لألكسندر ديماس الابن، ثم انفتحت أمامى دروب القراءة بعيدة عن جيوش الاحتلال وحماقات الباشوات، وأدركت أننى فى أشد الحاجة إلى تعلم اللغتين الإنجليزية والفرنسية كما تعلمت العربية.

كان لابد أن أفعل ذلك وحدى ومداومة القراءة بصوت عال حتى ولو لم أفهم حرفًا مما أقرؤه ، وكلما سيطرت علىّ أداة اللغة .. اندفعت فى قراءة المزيد من الكتب ولم يمض وقت طويل قبل أن أتبين أن الثقافة العربية والغربية تتفاعلان ولا يوجد حد فاصل بينهما ، وساعدنى على إدراك ذلك طه حسين وتوفيق الحكيم والعقاد .

الأول بحديثه عن حضارة البحر المتوسط التى تجمع بين التيار الثقافى اليونانى والتيار العربى الإسلامى والتيار الفرنسى أو اللاتينى الحديث . والثانى بحديثه عن إمتزاج الفنون الأدب والرسم والموسيقى والنحت والمسرح ، أما العقاد فكانت مراجعاته للآداب والفنون العالمية بمثابة دائرة معارف كسر كل الحواجز واجتازت كل البوابات بين الشرق والغرب ومعارف الحاضر والماضى والمستقبل .

* قلت : هل أبطال رواياتك تصنعهم من خيالك أم من الواقع ؟

* قال : الكتابة لدى لها علامات ، ولكى أكتب رواية يأخذ منى هذا المشروع وقتًا طويلاً قد يصل إلى ثلاث سنوات ، وقد تحاصرنى

مجموعة أفكار أكتبها كقصص قصيرة قبل أن أشرع فى كتابة الفكرة الرئيسية ، والأشخاص الواقعيون أستمد منهم تساؤلاتى حول اللغة ، والتغيير الكبير الذى حدث فى سلوكيات الناس من وسائل التخاطب التى تحدث بيننا وبين بعض .. فهناك كلمات يقال : إنها مبتذلة ولكنها صارت هى وسيلة التفاهم .

.. هناك شيء ما يحدث جعل الناس تستخدم مثل هذه التعبيرات ولابد لى من معايشة هذه السلوكيات الجديدة للكتابة عن النماذج الجديدة التى ظهرت من المجتمع ، فعندما أكتب رواية ما يجب أن أضع فى اعتبارى التغييرات اللغوية التى أستمدها من الواقع ، كنا فى الماضى عندما نكتب رواية كانت المشكلة كيف أصيغها ؟ هل باللغة العربية أم باللغة العامية ؟ وتوصلت إلى الكتابة باللغة الخفيفة التى تصل إلى كل الناس .

* قلت : هل تحتاج معايشة مع أبطالك قبل استحضارهم على الورق ؟

* قال : فى الأسبوع الماضى كنت أسير بسيارتى تحت نفق سميراميس وكان سائق تاكسى يسير للخلف دون الالتفات لسيارتى فحدث أن صدمته ، توقفت بسيارتى وقال لى السائق : آسف إنها غلطتى ، ففى الأحوال العادية كان المفروض أن أكمل مشوارى وأسير ، ولكنى أصررت على الذهاب معه إلى مستشفى قصر العينى

للاطمئنان عليه وطلبت إحضار الشرطة ، ولكنه رفض لأنى علمت فيما بعد أن رخصة سيارته قد سحبت منه وأنه يعانى من عدة مشاكل وطلت له الإسعاف واطمأننت عليه بنفسى وأعدت له الرخصة وأصبحنا أصحابًا وطلبنا من الشرطة أن تترك الصديقين دون إزعاج ، وهذه الحادثة الواقعية هى مشروع لفكرة قصة قصيرة ولن أقول لك حجم الثروة اللغوية التى حصلت عليها نتيجة هذه الحادثة من أمين الشرطة إلى سائق التاكسى إلى المستشفى وما يحدث فيها .

* قلت للكاتب الكبير : هل تفكر فى السينما عندما تكتب أعمالك الأدبية ؟

* قال : السينما شىء آخر ، لم أقدم أعمالاً للسينما بشكل مباشر ، ولكن كانت لى تجربة واحدة فى فيلم إنتاج مشترك عقب ثورة يوليو اسمه « عبد الله الكبير » وكان رمزاً للملك فاروق وطرده من الحكم ، وكان معى مجموعة من كتاب السيناريو الأمريكان ، أيضًا هناك سيناريو للسينما اشتركت فيه مع الكاتب الكبير محمد التابعى فى عام ١٩٥٤ عن قصة الكاتب يوسف عز الدين عيسى هى « صوت من الماضى » وقام ببطولتها أحمد رمزى وإيمان .

* قلت : ما رأيك فى أعمالك التى تحولت إلى سينما وتليفزيون ؟

* قال : إن مجال السينما والتليفزيون رؤية أخرى ويجب أن أؤكد على هذا المعنى ، لو تصورنا أنه من الممكن تحويل الرؤية الأدبية كما هى

مكتوبة في الرواية تمامًا ونقلها إلى السينما أوالمسرح أو إلى التليفزيون ، فهذا تصور خاطئ ومستحيل ، لأن الكتابة علاقة خاصة بين القارئ والكاتب ، بينما العلاقة من خلال الفيلم يدخل فيها مئات الأشخاص لتكوين المشهد وتمثيله وكتابة السيناريو والديكور والإضاءة والتصوير . فمشهد السينما يعبر عن كل هؤلاء ورؤياتهم ، ومن هنا يصبح العمل الأدبى عملاً فنيًا جديدًا منفصلاً تمامًا عن العمل المكتوب ومحاولة المقارنة بينهما محاولة ساذجة .

ولكن الذى أؤكده أنه عندما يهتم المخرج بالعمل يخرج العمل بشكل ناجح . فمثلاً في رواية « الرجل الذى فقد ظله » عندما كتب لها السيناريو فيصل ندا وأخرجها للتليفزيون جلال الشرقاوى وشاهدها المخرج كمال الشيخ طلب منى تقديمها فى السينما ، وبالفعل تم تحويلها إلى سينما بطولة كما الشناوى والفنانة ماجدة ، ونالت نجاحًا كبيرًا ، وأثارت جدلاً أكثر حول شخصية الكاتب الصحفى الذى اعتقد البعض أنه الكاتب محمد حسنين هيكل .

وفيلم « الرجل الذى فقد ظله » كان أول فيلم يكسر حاجز السياسة فى السينما عندما تناوله السيناريست على الزرقاني ، وركز على أحد أجزاء الرواية المكونة من أربعة أجزاء ، وقامت الفنانة ماجدة بأداء دور « مبروكة » وقام كمال الشناوى بدور الصحفى الذى يصل إلى قمة الصحافة ، الفيلم نجح جماهيريا وأصبح فى ذاكرة السينمائيين ،

ثم توالت نوعية هذه الأفلام مثل فيلم « الكرنك » قصة الكاتب الكبير نجيب محفوظ .

وكما أحدث فيلم « الرجل الذى فقد ظله » تساؤلات حول شخصية الصحفى ، حدث نفس المناقشات والتساؤلات لشخصيات رواية « زينب والعرش » وقد اتصل بى شخص يؤكد أن شخصية دياب هى شخصية (فلان) وقلت له : إن كل شخصياتى من واقع الخيال ولكن الأحداث مستمدة من واقع حياتنا .

* قلت : لكن أين الواقعية فى روايتك ؟

* قال : الواقع موجود ولكن الوقائع غير موجودة ، الواقع لاشك أنه موجود فى بعض النماذج التى شاهدتها وعايشتها ، كانت هناك نماذج حاولت أن تقوم بإصلاح باسم الثورة ، وتصرف بنواياها حسنة وطيبة ولكنها كانت تصرفات خاطئة .

وقد طلب منى أحد رؤساء التحرير كتابة المرحلة الحالية من الفترة التى تعيشها صحافة اليوم كجزء ثالث بعد « الرجل الذى فقد ظله » و« زينب والعرش » ولكن الذى أفكر فيه حاليا الصراعات بين الماديات والدين والتطرف .

* قلت : هل السينما تعطى شهرة للأعمال الأدبية ؟

* قال : نعم .. بالنسبة لرواية « زينب والعرش » عرفتنى بالناس وخاصة الدول العربية لأن نطاق التليفزيون أكثر انتشارًا حتى أن

البعض منهم أطلق على مراكبهم السياحية اسم زينب والعرش ، وفى تونس عرفونى بأنى صاحب زينب والعرش أيضًا لكن مهما كانت القراءة فجمهورها محدود .

* قلت : هل هناك عمل واحد يخلد كاتبه ؟

* قال : لكل كاتب أعمال مميزة ، ورواية « الجبل » كانت إحدى علامات انتشار أعمالى ، ثم جاءت رواية « السخن والبارد » ثم تلتها «زينب والعرش» ثم « الأفيال » ، التى كثر حولها النقد ، ورواية « حكاية تو » أخذت اهتمامًا كبيرًا من النقاد لأنها كانت تدور حول التعذيب فى السجون ، أستطيع أن أقول هذه هى المعالم الأساسية فى كتاباتى وكان وراءها اهتمام كبير من الناس .

* قلت : ما الذى تبحث عنه من خلال أعمالك ؟

* قال : أنا لا أبحث عن شىء ، أنا لست داعية ، وإنما الذى يلح على أجد نفسى منطلقا على سجيتى وأقول : ما أشعر به ، فإذا لم تكن بداخلى هذه المشاعر ، فأنا لا أكتب عنها . ودائمًا هناك فكرة أو موقف ، وما نعيشه من صراعات يخلق بداخلى نوعا من التحدى للتصدى لهذه الماديات والصوفية والشهوانية ، فأكتب واسأل نفسى : ما حقيقة هذه التصرفات ، وما هى الدوافع ؟ ثم أبدأ فى الدخول فى هذه « السكة » ، ثم أبدأ بعمل جولة داخل رأسى ثم

أعمل إجابات .. بمعنى أننى أكون قد فهمت ووجدت فى رأسى ما أريد أن أعبر عنه ويكون الخلاصة « رواية » .

* قلت : بعيدا عن السياسة والأدب .. ما الذى يؤرقك كإنسان ؟

* قال : أنا إنسان عادى بصرف النظر عن الكتابة ، وتؤرقنى أشياء تافهة ، مثل أكل النشويات والحلويات والرجيم والسمنة والأكلات التى فيها «كالورى» وما الذى يجب أن أتناوله حتى لا أصاب بالسمنة . كما أننى أحب لعبة الشطرنج ، وأجد فيها وسيلة للهروب من بعض واجباتى العائلية والمجاملات الأسرية .

* قلت : هل هناك قراءات معينة تقوم بها كاسترخاء لأفكارك ؟

* قال : الروايات البوليسية .

* قلت : هل تتابع حركة السينما والمسرح والتليفزيون ؟

* قال : فى الوقت الحالى حركتى فى الخارج قليلة ، ولكن تعجبنى أعمال محمد صبحى ، ومن النجوم التى أحبها : عادل إمام وأحمد زكى ، فأنا اعتبرهما مواهب كبيرة كزعيم أكثر منها كفنان ، والناس تنتظر منه فى أعماله أن يأخذ مواقف لها فى الحياة مثل السخرية من السلطة أو السخرية من نفسه وضعفه أمام السلطة ، هذا التكوين استطاع أن يقدمه عادل إمام فأيقظ بها الكثير من الوعى لدى الناس ، أما أحمد زكى كممثل قدراته على تقديم نماذج مختلفة مبهرة .. إنه يستطيع أن يتقمص شخصياته وكأنها حقيقة .

* قالت : هل تكتب يوميًا ؟

* قال : أنا كسلان فى الكتابة ، ولكن أكتب فى حالتين .. إما أن يكون لدى إحساس داخلى بأننى يجب أن أكتب بدافع نفسى لأننى أريد أن أعبر عن شىء ملح بداخلى ، وإما أن أكتب بسبب موضوع معين مطلوب للنشر ، وقبل هاتين الحالتين بثانية واحدة لا أكتب ، كل ما يمكن تأجيله فى الكتابة أؤجله .

* قلت : هل هذا خوف من الكتابة ؟

* قال : الخوف مستمر ، أحيانًا يصبح خوفًا مرضيًا ، عندما كنت أكتب رواية « ست الحسن والجمال » كنت أطلب من كل من أراه أن يقرأها ، مع كل عمل جديد أكتبه أشعر بالرعب .

* قلت : من أول قارئ لفتحى غانم ؟

* قال : ابنى أحمد دائمًا آخذ رأيه فى كتاباتى ، ابنى عمره ٢٦ عامًا ويعمل مساعد مخرج ، وهو خريج الجامعة الأمريكية قسم علوم سياسية ولكنه أحب السينما فعمل فى الإخراج كمساعد مخرج ، واشترك مع رأفت الميهى فى فيلم « سيداتى آنساتى »

* قلت : ما الذى تنصح به ابنك ؟

* قال : لا أنصحه أبدًا ، ليس لدى وصايا عليه ، أنا آخذ رأيه فى أعمالى أكثر منه فأنا أشعر بأننى الذى أحتاج إليه أكثر ، فأنا أنظر له على أنه الجديد دائمًا .

* قلت : وما رأيك فيما يحدث فى السينما اليوم ؟

* قال : حركة حائرة ، لا تعرف رأسها من قدمها وخاصة الحركة الخاصة بإدارة المشاريع الفنية وعمليات التمويل ، لاتوجد ثقة

* قلت : هل الجدد لا يفهمون ما يريدون ؟

* قال : مازالوا يدقون على الأبواب .

* قلت هل لزوجتك رأى فى أعمالك ، وهل تشاركك أفكارك ؟

* قال : لها رأى من بعيد ، ولكن لها رؤية باستمرار فى الحركة السينمائية ، فهى تسافر معى فى الخارج تتابع كل الأفلام الجديدة ، لكن بالنسبة لأعمالى الأدبية والروايات ليس لها اهتمام .

* قلت : هل تقرأ بنفسك أعمالك بعدما تنتهى منها ؟

* قال : قراءة الأعمال بعد أن أنتهى منها عملية صعبة جدًا ، فأنا أقرأ ما أكتبه .

* قلت : أيهما كان أسبق فى حياتك ككاتب السياسة أم الفن ؟

* قال : فى الحقيقة السياسة هى التى لبستنى منذ أنا ولدت لأن والدى كان سياسيًا ووفديًا وكانت له علاقة صداقة مع النقراشى باشا وأحمد ماهر باشا ، وقد توفى والدى عام ١٩٣٦ واستمرت علاقتى بأصدقائه الذين كانوا يحضرون أعياد ميلادى وأنا طفل صغير .

والدى تعرض لمشاكل سياسية لأنه كان وفديًا ، وكان يكتب مقالات سياسية فى جريدة الأهرام بخط والدتى وبإمضاء « مطلع » حتى لا يتعرف عليه أحد ، وكان صديقًا للعقاد وله مؤلفات أدبية من بينها «قصة حياة جان دارك» ، وعندما توفى كان عمرى ١٣ عامًا وأصبح أصدقاء أبى هم أصدقائى وكانوا سعيدين بى وعشت فترة الجامعة وسط الغليان الذى سبق الثورة ، وكان الشبان إما من الأخوان أو شيوعيين أو وفديين أو من أنصار الكتلة مثل موسى صبرى ولكنى لم أنضم إلى أى اتجاه رغم إقناع أصحابى بهذه الاتجاهات والتيارات السياسية المختلفة .

كان لدى عزوف عن السياسة لأننى تعاملت مع كبار السياسيين وأنا طفل فقدت درجة الهيبة لهم ولتياراتهم ، كما أن تجربة والدى جعلتنى حذرًا فلم أدخل السجن أو المعتقل فى حياتى .

كانت السياسة بالنسبة لى عملية فرجة جعلتنى أكتشف الرؤية بصورة أوضح للمجتمع ، وعرفت أن أحسن رؤية للمجتمع ليست رؤية السياسى وإنما رؤية الأديب، وعندما وصفت العلاقات بين العاملين فى الصحافة والسلطة من خلال رواية الرجل الذى فقد ظله ورواية زينب والعرش ، كانت الرؤية أصدق مما لو كنت تناولت هذه الموضوعات من خلال مقالات سياسية أدافع فيها عن وجهة نظر معينة لو حدث هذا لما حملت نفس الاقناع والتأثير بالنسبة للجماهير .

الإجابة الصعبة دائما نجدها فى الأدب وليس فى السياسة ، دائمًا رؤية الأديب أصدق فى التعبير من رؤية السياسى ، وهذا الذى جعل أفلاطون يقول : إن الحكم فى الجمهورية هو الشعر والأدب وليس السياسة ، وأرسطو كان يشبه الدولة بالإنسان .. أقدامه السياسة ، وبطنه وصدره المشاكل الاجتماعية ، ورأسه الحكمة والشعر والأدب .

* بردان والرعشة معذبانى فى عز الشتا
* ومش لاقى حبة دفا تجمع أوصالى المشتتة
* سألت الحكيم ألاقى الدفا الحقيقى فين ؟
* قالى الكلمة الحلوة تحيى النفوس الميتة !!

بيكار

* أقرب موديل إلى نفسى هو بيكار نفسه.

* بيكار معزوفة إسانية نادرة ، فهو مصور وشاعر وعازف ومعلم موهوب ، عاشق للحياة ،يرى فى كل شيء قبيحًا بعضًا من الجمال ، ولا أعرف هل هذه هى المثالية الخالصة أم أنها المثالية الممزوجة بالرومانسية؟ ! إذا رسم وجه إنسان فهو جراح يعطى له سحره الخاص ، يخجل عندما يبيع لوحة من لوحاته وسعادته تكمـن فى الرسـم .

بيكار وتر منفرد يعزف على أى لحن صعب، شاهد سيد درويش وعزف ألحان الموسيقار محمد عبد الوهاب ، وعشق أغانى عبد الحليم حافظ .

كانت بدايته الفنية عن طريق الموسيقى والغناء، رغم ممارسته للرسم التلقائى منذ طفولته، وبراعته فى العزف على العود وهو فى الثامنة من عمره جعلت بعض الأسر الثرية تطلب منه تعليم بناتها الموسيقى، ومن هنا اكتسب ملامح الأستاذية المبكرة .

تعلم على يد الفنان أحمد صبرى فن البورتريه ، وتدرج فى وظائف التدريس بالمدارس الابتدائية والإعدادية والثانوية ، وفى عام ١٩٤٢ أصبح أستاذًا بكلية الفنون الجميلة حتى طلب منه الصحفى الكبير مصطفى أمين أن يترك التدريس ويتفرغ للصحافة ، وسافر كسندباد للصحافة المصرية يسجل بقلمه وريشته بلاد العالم .

وبين الشعر والرسم والعزف على آلة البزق ، عاش الفنان الكبير بيكار يكتب ويرسم ويعزف بلا تردد ، وقد اعترف لى قائلاً : أنا لست شاعرًا أو زجالاً ولكنى أصنع كلامًا موزونًا ذات قافية بجوار الصورة حتى لا أحاسب حساب الشعراء ، وتدرجت من الزجل إلى أن وصلت مع تأملاتى إلى شكل الرباعيات وهى لون جديد من الفن الصحفى ، تتعاون فيه الكلمة مع الخط فى تقديم بوكيه صغير مختلف عن المألوف ، أما العزف على آلة البزق فأنا أصلاً عازف عود جيد جدًا هويت العزف عليه منذ طفولتى ، لكن العزف على آلة البزق عرفته فى سن مبكرة فى حياتى بسبب سماعى للعازف السورى عبد الكريم وبهرنى بأنغامه على هذه الآلة ، فقررت أن أعزف عليها وأصبحت أشهر عازف آلة بزق بين أصدقائى ، أعزف لهم فى جلساتنا الخاصة أو فى مناسبات اجتماعية .

وآلة البزق تشبه البجعة شكلها مميز .. لا هى « ماندولين » ولا هى « عود » ، لها طعم مختلف وهى أصعب من العود فى

تحريك الأصابع على أوتارها ، إننى أعزف فى أى وقت ، إنها هوايتى المفضلة ، إنما الرسم مهنتى .. فقد أرسم فى أوقات غير الأوقات التى أخصصها للرسم ، لأنه مطلوب منى رسم معين فى وقت معين لمناسبة معينة ، وما أصعب أن يكلَّف فنان بعمل معين فى وقت محدد .

* قلت له : هل هناك صراع بين الفنان والصحفى بداخلك ؟

* قال لى : هناك فرق كبير بين الرسم المطلوب منى كصحفى والرسم الذى أقوم به كفنان لنفس الموضوع الواحد ، بمعنى .. حدث مثل « حرب أكتوبر » أنا كفنان أُقدم له رسمًا ما بوجهة نظر خاصة ، ثم تأتى وزارة الدفاع وتطلب منى رسمًا لنفس المناسبة ، فقد أرسم الأول بإحساس تلقائى ، والرسم الثانى بإحساس المكلَّف ويكون الفرق كبيرًا بين الرسمين والإحساسين .. لكن هذا الصراع جزء من حياة الفنان الصحفى .

* قلت له : لكل فنان عادات أو طقوس معينة يؤديها قبل الشروع فى العمل الفنى ، فهل لديك طقوس محددة تؤديها قبل دخولك مرسمك ؟

* قال ضاحكًا :ليس لدى أى طقوس ، ولأننى فى الأصل رسام صحفى ، فأنا أرسم الواجب المكلّف به كالتلامذة وهو أسخف أنواع

الرسم ، أو الرسم المطلوب منى فى لوحات البورتريه ، لكن الرسم غير المكلف به يكون من أفضل أنواع الرسم فى حياتى وأمارسها فى تأملاتى المرسومة كل يوم جمعة فى جريدة الأخبار .

ذكرياتى مع سيد درويش والموسيقى

* قال لى بيكار : إننى أحببت الموسيقى منذ كنت طفلاً صغيرًا فى التاسعة من عمرى ،وأول من جعلنى أعشق هذا الفن الذى عاش فى دمى حتى الآن هو الشيخ سيد درويش الذى شاهدته لأول مرة فى حياتى وأنا طفل أتعلم الغناء فى مدرستى الابتدائية فى الإسكندرية ، ولم تحمل ذاكرتى من ملامح سيد درويش الشكلية إلا القليل ، فما أذكره أنه كان قصير القامة ممتلئ الجسم قليلاً ويرتدى الجبة والقفطان والعمامة ذات الشال الأبيض الملفوف حول طربوش أحمر ، وذات يوم أرادوا أن يعلمونا فى المدرسة نشيد « بنى مصر هيا أدعو للمجد » ، وجاء لنا شيخ معمم يقوم بتحفيظنا هذا النشيد وعرفت فيما بعد أنه الشيخ سيد درويش .

أنا عاصرت سيد درويش ورأيته فى حياتى وأحببته أكثر بعد ما عرفت طعم الموسيقى ، وعندما جئت إلى القاهرة لاستكمال دراستى الجامعية والتحقت بكلية الفنون الجميلة ، كان هناك منزل فى شبرا أمام الأتيليه الذى كنا نذهب إليه أنا وزملائى للتدريب اليومى على الرسم ، وكان ينبعث من هذا المنزل صوت سيد درويش من خلال

جهاز « فونوغراف » وأتذكر أغنية « يا فؤادى ليه بتعشق » وكنت أذوب فى معانى وألحان هذه الأغنية ولا أستطيع حبس دموعى حتى الآن عندما أسمعها ، سيد درويش لم يكن يعزف ألحانًا وإنما كان يعزف مشاعر .

* قلت له : هل تفضل سماع الموسيقى الشرقية ؟

* قال : إننى أسمع كل أنواع الموسيقى من الكلاسيكية الغربية حتى موسيقى الربابة « لمتقال » وأفضل سماع الراديو لأنه يتيح لى سماع الموسيقى فى أى وقت ، ولا أشعر بالتناقض مع ذاتى فى عدم حضورى حفلات الكونسرتات الموسيقية لأنى أفضل سماع الموسيقى وأنا مغمض العينين ، والراديو هو الجهاز الوحيد الذى يحقق لى هذه المتعة .

* قلت : أيهما يستهويك أكثر الموسيقى أم الرسم ؟

* قال : الاثنان معًا .

* قلت : هل رسمت بورتريهات لمشاهير الشخصيات ؟

* قال : لم أرسم فى حياتى شخصية واحدة مشهورة ، أنا لا أحب رسم المشاهير ، هذه الوجوه تجعلنى أشعر « بالكلفة » ورسمى لوجوه عادية من قاع المجتمع تجعلنى أشعر بالحرية ، وجه طفل ، أو وجه بائع متجول فى الشارع تستهوينى أكثر من طلب رسم « فلان الفلانى » .

* فقلت : هل اضطررت يومًا لرسم بورتريه ؟

* قال آسفًا : مرتين ، وكان من باب الشفقة ، وظهرت هذه الأحاسيس فى اللوحتين .

* قلت : ما الذى يجذبك فى ملاح الوجه ؟ .

* قال : شيئان ، الجانب التشريحى للوجه ، والجانب التعبيرى ، فهناك امرأة جميلة ، تحمل كل المقاييس الجمالية لكن فيها برود كتمثال الشمع ، هذه الوجوه يصعب على رسمها ، على عكس الوجوه التى تشع إحساسًا وتعبيرًا عما يحدث بداخلها لتحدد ملامح شخصيتها .

* قلت : كم يستغرق منك رسم البورتريه ؟

* قال : من كثرة عملى للبورتريه ، أصبح البورتريه النصفى يحتاج منى خمس جلسات ، والبورتريه الكلى يأخذ منى تسع جلسات وكل جلسة تستغرق ساعتين .

* قلت : من هو أستاذك فى فن البوتريه ، وما الذى تعلمته منه ؟

* قال بلا تردد : الفنان أحمد صبرى وببساطة علمنى أن الفن ليس سهلاً وأن التجويد أصعب ، وعلمنى الفرق بين التجويد والفبركة ، وقد عاصرته وهو يرسم البورتريه ، وقد رسمنى وأنا أقوم بالعزف على العود ، وقد يكون الفرق هو الذى حدا بأستاذى أن يرسمنى فالفرق طقس وملمح إنسانى قبل أن يكون ملمحًا شخصيًا ، وصارت صورة رسم الأستاذ لتلميذه أحد لوحات

المتحف المصرى الحديث ورأيت فيها معاناة فنان البورتريه بنفس
خلال رسم أستاذى لى هذا البورتريه .

* * *

ومن أكثر الفنانين الذين تأثر بهم بيكار فى حياته الفنية ول
فيها دورًا هامًّا فى إنتاجه الفنى كثيرون ، وقد وضع بعضًا من
فى كتابه « لكل فنان قصة » الذى روى فيه انطباعاته الذاتية
ويرى بيكار أن القارئ لا يهمه خطوط أو ألوان مايكل أنجلو
وإنما الذى يهمه حياته الخاصة والظروف التى جعلت منه ف
معروفًا ، ومن بين هؤلاء الفنانين رمبرانت وروبنز وفان جو
وجويا وبيكاسو وموديليانى ومحمود سعيد ومحمود مختار .

ومن أكثر الفنانين إثارة فى حياة بيكار كان ليوناردو دافنشى الذ
قال عنه : إنه من أكثر الفنانين . روعة وقال عن لوحته الشهير
« الجيوكوندة » فى كراسة مذكراته : إن جميع الحواس لتمنى
تلتهم صاحبة هذه اللوحة التهامًا وخاصة هذا الفم الرشيق الذى يشتهى
كل جسد أن يكون مثله .

واستطرد الفنان فى مدح لوحته كما لم يمتدحها أحد من مقرظ
من قبل ولا من بعد !

ويقول بيكار : لا غرابة فى أن يفتتن الفنان بروعة لوحته التى
استغرق فى صنعها أربع سنوات كاملة والتى يدعو الموسيقين والمهرجين

إلى مرسمه ليبعثوا البهجة في نفس « موناليزا » ، أثناء جلوسها أمامه حتى تظل عالقة بشفتيها أشهر وأجمل ابتسامة عرفها التاريخ !!

أول سندباد صحفى

وما لا نعرفه عن الفنان بيكار أنه كان أول سندباد صحفى سافر إلى بلاد العالم المختلفة يغمس ريشته فى محبرة ألوانه ، ليكتب ويرسم العالم من وجهة نظره ، وقد قال لى عن سفرياته : أنا أول وآخر سندباد صحفى .. لقد أجبرنى الكاتب الصحفى على أمين على الاستقالة من عملى كأستاذ فى كلية الفنون الجميلة لأتفرغ للصحافة فى جريدة الأخبار ، وقال لى : سافر وارسم واكتب ، أختار البلد والزمن الذى يعجبك ، وسافرت وكتبت ورسمت وعملت صحافة الرحلات وهى غير أدب الرحلات الذى قام به الكاتب الصحفى أنيس منصور فى كتابه حول العالم فى ٢٠٠ يوم ، كنت أكتب وأرسم وأنقل حياة شعوب كاملة على الورق ، ومن هنا أصبحت بحق (عين شايفة) .

* والورق والألوان فى حياة الفنان عنصران هامان لتواصله بين ذاته والعالم الخارجى ، وحساسية بيكار لا تكمن فى لمسات ريشته مع ألوانه على لوحاته ، ولا فى كلماته بين سطور مقالاته فى الصحف وإنما حيرته مع الورق قوية جدًّا ، ومع بداية أول عمل له فى الكتابة من خلال كتابه الأول « لكل فنان قصة » قال عن الورق : أطوف


• برد الله والرعشة معذباني فى عز الشتا
• ومن لاقى حبة دفا تجمع أوصالى المشتتة
• سألت الحكيم ألاقي الدفا الحقيقي فين?
• قال لى الكلمة الحلوة تحيي النفوس الميتة!!
بيكار

العالم فى سفن من ورق ! أجفف العرق بالورق ، أتسلق جبال المعرفة بجبال من ورق .. أشترى غذائى وكسائى وراحتى بل وعذابى بعملة من ورق ، أصبحت مثل حشرة « العثة » التى لا تعيش إلا فى الورق وبالورق ، وترتفع تلال الورق من حولى لتصبح السكن والكفن والفراش واللحد وسجنًا شاهق الجدران والقضبان والقلق ، أكاد أختنق .

أطمع فى طوق نجاة ينجينى من الغرق .

ويغرق بيكار فى الحياة والناس ليطالعنا كل أسبوع على تلك اللوحات المرسومة على الورق من تأملات طويلة عاشت بداخله أيامًا وليالى وربما سنوات يقدمها فى صورة زجل ورباعيات ، يقف أمامها القارئ ساعات طويلة يبحث لها عن إجابة فيجد إجاباتها تارة بداخله ، وتارة أخرى يلوذ بالصمت ويطلق العنان للأفكار ، فكلماته تشبه السياط الذى يلهب الذهن والروح معًا بلا جروح أو دماء .

ومن الكلمات المرسومة ذات المعنى العميق يكشف بيكار عن تأثير الكلمة الطيبة فى النفس التى تشبه فى الحقيقة إحياء النفوس الميتة عندما قال :

* بردان والرعشة معذبانى فى عز الشتا
* ومش لاقى حبة دفا تجمع أوصالى المشتتة
* سألت الحكيم ألاقى الدفا الحقيقى فين ؟

* قاللى الكلمة الحلوة تحيى النفوس الميتة !!

وفى مكان آخر يجد بيكار أن الإنسان الشريف النظيف لا يجد سهولة فى كسب عيشه وسط تلال النفاق والافتراء والرياء عندما يقول :

* ياما النفاق يا ولدى والافترا والرياء
* ظلموا ناس كتير فى الحياة أبرياء
* لكن الشريف النظيف لو توجوه بالشوك
* يصير الشوق على جبينه تاج كبرياء !! !

ومن خلال هذه الكلمات التى يرسلها إلينا بيكار من عالمه الخاص .. عالم التأملات والأمنيات الرومانسية ، نجد فيها بعضًا من الأمل أحيانًا وبصيصًا من التفاؤل فى المستقبل .

* قلت له : رسمت نفسك أكثر من مرة فما السبب ؟

* قال باسمًا : هذه حقيقة لا أستطيع الهروب منها ، وهى ليست نرجسية ، وإنما هى نوع من المذاكرة ، فأحيانًا أحتاج إلى موديل رخيص وسريع تحت أمرى فلا أجد هذا الموديل إلا فى نفسى فأقوم على الفور برسمى ..

* قلت : وهل تعرف نفسك ؟
* قال بحزم : نعم ، وصمت .
* فبادرته قائلة : وعيوبك ؟

* قال : معرفتى لنفسى جعلتنى إنسانًا سعيدًا .. فأنا أكثر النقاد لنفسى لأننى أعرف عيوبى .

* قلت : وهل عيوبك تخيفك ؟

* قال : نعم تخيفنى جدًّا .

* قلت : وهل هذا يصيبك بالقوة أم بالضعف ؟

* قال : الاعتراف بالعيوب والإحساس بالخطأ فى حد ذاته قوة ، لأن هناك ناسًا لا تعترف بأخطائها ، وإنها دائمًا على صواب ، لكن أنا أفضل أن أعرف عيوبى وأعترف بها وفى هذا قوة لا ضعف .

* قلت له : لكل فنان بصمة ، فما هى بصمة بيكار ؟

* قال : كل واحد فى ذاته هو أفضل الناس ولكنى أرى دائمًا فى الآخرين أنهم أفضل .

* قلت : لاأوافقك، فكل فنان له بصمة وتميز وعبقرية خاصة به.

* قال : العبقرية إعجاز .

* قلت : إذن لا توجد عبقرية ؟

* قال : العبقرية هى أن يقوم إنسان بعمل يعجز عنه الآخرون عن عمله مثل عبقرية مايكل أنجلو .

* قلت له :هل رسمت نفسك بملامح شخص آخر ؟

* مادمت أرسم نفسى فأنا أرسم إنسانًا له ملامح معينة وشخصية وتاريخ ، فلو رسمت نفسى أمس ورسمت نفسى اليوم قد تكون صورة الأمس أفضل من صورة اليوم ، فالفن ليس فيه آلية ، ولكنها تحمل نفس الملامح .

زوجـة الفنـــان

فى كثير من الأحيان تكون زوجة الفنان نقمة عليه وليست نعمة ، ما الذى تمثله الزوجة فى حياة الفنان ، الفنان بيكار يرى أن هناك هالة مفتعلة وضعها الفنان حول نفسه ، وهى أنه يحيا حياة بوهيمية وله حرية مطلقة وأنه لا يحاسب على أخطائه ويقول : إن الفنان ليس بالضرورة أن يكون إنسانًا بوهيميًّا ولكنه إنسان ذو حس عال ويجب أن يختار زوجة ليست فنانة وإنما إنسانة متذوقة للفن، ولاتتزوجه لأنه فنان وإنما لأنها تحب الفن ويجب أن تهيىء له الحياة الخاصة به وسط الحياة الزوجية ، فأنا زوج منذ خمسين عامًا وزوجتى أول ناقدة لى ولها رأى فى كل أعمالى .

ومن ناحية أخرى لعبت المرأة دورًا مختلفًا فى حياة الفنان بيكار من خلال لوحاته التى تميزت فيها بشكل متميز يعرفه الجميع ، ذات وسط مسحوب وجسد ملفوف ، وصدر صغير ، أشبه بآلهات اليونان القديمة ، لها ملامح مصرية وروح شعبية لا يخطئها أحد ، فالمرأة عند بيكار ليست جسدًا بأى حال من الأحوال ، إنها كيان ،

وقور ، محترم ، متزن .. حلم ، هادئ تستمتع به بعقلك وروحك دون إثارة غرائزك ، فهى المعنى الدافع الوثّاب للإبداع والتلقىٰ ، إنها كيان له نفس رائحة الحياة .

ومن جانب ثالث يعتبر بيكار الرسام الشعبى الذى وضعت المرأة المصرية لوحاته على جدران منزلها من خلال رسوم الكنافاة للبيت على المرجيحة ، وربة البيت والبنت فى الحديقة ، وكلها رسومات مستوحاة من البيئة المصرية وحياة المرأة المصرية فأخذتها المرأة المصرية لتضعها على جدران بيتها لتمثل بخطوطه خيوط المرأة حين حولتها إلى لوح من الكنافاة على جدران منزلها .

* قلت : ما رأيك فى الحركة الفنية الحديثة ؟

* قال : أنا حريص على متابعة الحركة الفنية بلاتزمت ، أنا كلاسيكى حتى النخاع ولكنى متحرر فى تفكيرى ، وإذا رأيت عملاً جميلاً أقول «الله» وأتمنى لو أتحرر من قيودى لأرسم مثله .

* قلت : ما هى قيودك ؟

* قال : قيودى الالتزام ،التأدب ، الأخلاق ، إننى أعتبر أن الفن فيه جزء كبير من الاخلاص وفيه العيب وغير العيب ، وأنا أرسم بأحاسب نفسى ، هذا فن أخلاقى ، وهذا فن لا أخلاقى ، إننى ملتزم بقيودى الفنية .

* قلت : ما هو الفن الأخلاقى والفن اللا أخلاقى ؟

* قال : التهور يعتبر فنا لا أخلاقيا ، والشطحات تعتبر لا أخلاقية ، لكن لو لم يحدث التهور والشطحات لن يحدث تطور أو تجديد ، والتجديد أساسًا قائم على الشطحات ، وأنا أخاف أن أتهم بأنى خرجت عن الخط والوقار الذى رسمته لنفسى .

* قلت له : ما هى الشطحات التى تعنيها فى الفن ؟

* قال : تجريب الهلس .

* قلت : ما هو « الهلس » فى رأيك ؟

* قال : واحد عجوز يسير مرتديًا قبقابًا فى حى راق ، أنا كزوج مع زوجتى لا أستطيع أن أخرج من بيتى إلا إذا أحضرت لى بدلة وكرافتة .

* قلت : هل الالتزام ضد الفن ؟

* قال : الالتزام ضد التطور وليس ضد الفن ، هناك فنانون منذ أن ولدوا حتى الممات التزموا وجددوا فى حدود نوعيتهم ، أمثال مايكل أنجلو ورافائيل ورامبرانت ، وعندما ننظر إلى أعمالهم نجد شيئًا من النمو ، لكن نمو فى عكس الاتجاه .

* قلت : كل فنان تمر عليه لحظات لا يرضى فيها عن عمله ، لحظات فشل تتخلل لحظات النجاح ، ويتأرجح بين صعود وهبوط

وهذا أمر طبيعى ، ولكن هل يمكن أن يهبط مستوى فنان عن المعدل المعقول ، ماذا تفعل لو حدث لك هذا الإحساس ؟

* قال بعد صمت : إذا حدث لى هذا أغوص فى قاع الندم وأقول كما قالت مريم : ﴿ياليتنى مت قبل هذا وكنت نسيًا منسيًّا﴾ بهذه القسوة يحكم الفنان الصادق على نفسه قبل أن يحكم عليه الغير .

* قلت له : وأنت تحتفل بعيد ميلادك الثمانين .. ما الذى يستهويك فى الحياة ؟

* قال : البساطة غير المفتعلة .. والصدق .

* قلت : ماذا عن الحب ؟

* قال مبتسمًا : أنا أسمى حسين بيكار واختصاره (ح .ب) ولا أخفى عليك سرًّا ، أنا حبّيب درجة أولى .

البصر جانب هام جدًّا من عناصر الإدراك المباشر الملموس فى حياتنا اليومية ، إنه إدراك محدود ، وهو يمهد إلى خطوات يتلو بعضها البعض في دائرية ، والبصيرة لا حدود لها ، فهى أبعد وأعمق وأوسع وأشمل وأعجب من البصر .

وحين لا يستطيع الإدراك أن يتخطى حدود الواقع ، فإن البصيرة تنطلق إلى آفاق سامية مذهلة لا تخطر على بال ، إنها عماد الروحانيات والفن .

صلاح طاهر

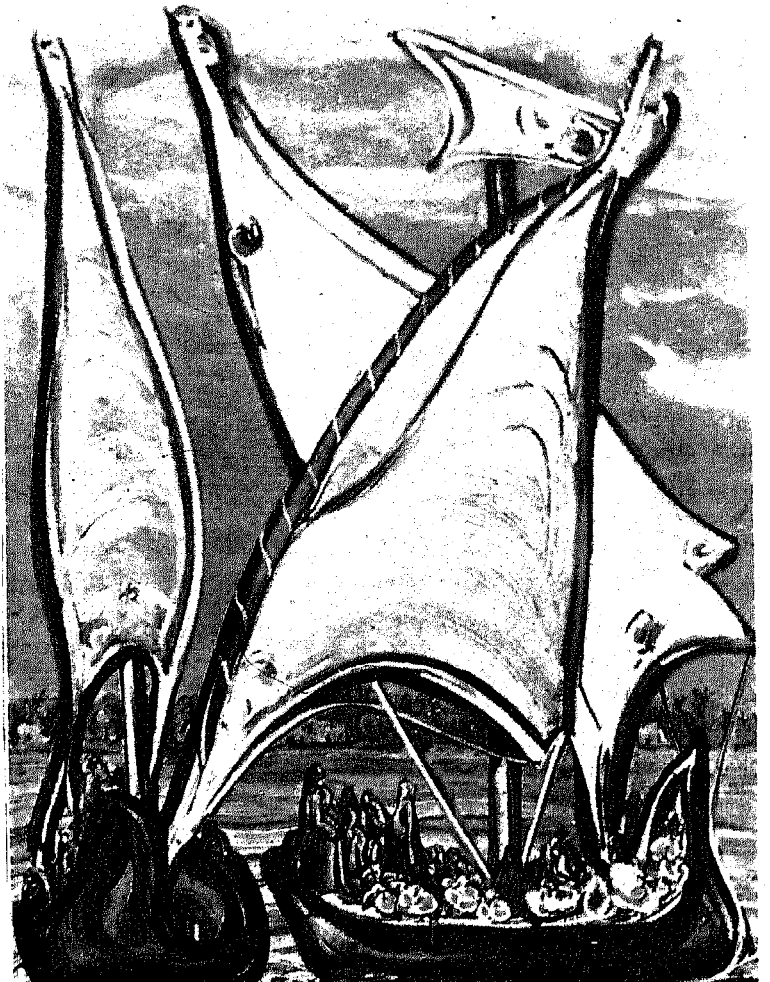
* صاحب الألف بورتيريه

قدم أكثر من ألف صورة بورتريه لشخصيات فنية وأدبية وسياسية كبيرة ، من بينهم العقاد وتوفيق الحكيم ونجيب محفوظ وأم كلثوم وزوجة الرئيس اليوغوسلافى تيتو ، وغيرهم من مشاهير الفن والسياسة والأدب ، وكان له مع كل صورة قصة وحكاية وموقف طريف ، وبين لوحات المشاهير سمح لى الفنان صلاح طاهر بالغوص وراء ذكرياته مع هذه اللوحات التى تحمل فى طياتها سنوات عمره الفنى الذى قال عنه : أعترف لك بأننى لست فنانًا معروفًا بفن البورتريه ،رغم أنى رسمت أكثر من ألف شخصية معروفة ، ولو كنت رسمت كل المشاهير الذين التقيت بهم فى حياتى لكان فنى كله صور بورتريه .

الفنان صلاح طاهر أحد الفنانين التشكيليين المعاصرين الذين عاشوا مراحل فنية مختلفة ، انتقل

فيها بين مدارس الفن ، وأقام أكثر من ٨٠ معرضًا فنيًا داخل مصر وفى الدول الأوربية والعالم العربى ، وهو من أكثر الفنانين الذين يتمتعون بأكثر من كونهم رسامين تشكيليين ، فهو رسام ورياضى وعازف كمان وسياسى ومفكر ، عاصر العقاد وتعلم منه ، وكان له آراء فى السياسة والفكر والفن .

وعندما سألته عن علاقاته بالعقاد ، وما الذى تعلمه منه قال لى : العقاد !! لماذا العقاد بالذات ؟ ! هل تعرفين أن العقاد من الفلاسفة الكبار الذى تأثرت بهم وتركوا بصمات واضحة فى حياتى ، لقد أعادنى هذا السؤال إلى أيام الشباب والصبا ، وكان عمرى تسعة عشر عامًا عندما رسمت أول لوحة بورتريه فى حياتى للكاتب الكبير عباس محمود العقاد ، وكان فى ذلك الوقت يكبرنى بحوالى خمسة وعشرين عامًا .. وكان لقاؤنا غريبًا ، كنت أيامها عازف كمان ، وكنت حاصلاً على بطولة مصر فى الملاكمة للوزن الخفيف ، ودعانى أحد الأصدقاء لحفل عيد ميلاده ، لأقدم له عزفًا على الكمان ، وفى الحفل فوجئت بوجود العقاد الذى كان صديقًا لوالد صديقى وعرفنى به كعازف كمان ، ولكن العقاد قال : أليس هذا الشاب هو بطل مصر فى الملاكمة ، وسألنى كيف تلعب ملاكمة وفى نفس الوقت تعزف موسيقى ، أريد أن أرى أصابع يدك ..



وكان هذا الحوار القصير بداية للتعارف بينى وبين العقاد ، وبعده أصبحنا أصدقاء ولم أنقطع يومًا عن جلساته الثقافية التى كانت تنعقد كل أسبوع فى منزله ، واستمر اللقاء بينى وبين العقاد فى هذه الأمسية طوال الوقت ، تحدثنا عن كتاب كنت قد قرأته عن مختارات لشنبهور الذى كان يعزف الكمان رغم فلسفته المتشائمة فى الحياة .

وكان لشنبهور قول مأثور يقول فيه : « أن الذى يجعل للحياة معنى ويجعلها محتملة هو الفن » ولم أعزف فى تلك الليلة شيئًا ولم أتحدث مع أحد ولم أجالس أى شخص ، وكانت كل جلساتى وأمسياتى مع العقاد الذى أصابته الدهشة منى لأننى أعزف الكمان وفى نفس الوقت أمارس رياضة الملاكمة وقال والد صديقى للعقاد « وأنه يرسم أيضًا » وازدادت دهشة العقاد وبدأت العلاقة الحميمة بينى وبينه ودعانى لحضور صالونه الشهير كل يوم جمعة فى منزله بحى مصر الجديدة ..

وفى البداية كانت علاقتى به كأب روحى ، وكان لنا لقاءات مستمرة غير أيام الجمع ، وكنا نخرج معا كل يوم بعد تناول العشاء نتحدث فى شتى الموضوعات وآخر القضايا الثقافية والأدبية ، وكان العقاد يتناول عشاءه فى الثامنة مساء وكنا نلتقى فى الساعة الثامنة والنصف كل ليلة نجوب فيها شوارع مصر الجديدة ، التى كانت تتميز بالهدوء والحدائق ، وكانت الأحاديث بيننا رائعة ولا يمكن أن

أنساها ، وكنت أيامها متحمسا لقراءة كتاب عن « فن التغذية » وكان العقاد يجد متعة فى حديثى معه ، ومن هنا كان من الضرورى أن أرسم صورة للعقاد ، وكانت أول صورة لى وأنا طالب فى نهائى كلية الفنون الجميلة ، ثم رسمته مرة ثانية عام ١٩٣٦ عندما تحدى الوفد وانشق عنه فرسمته واقفًا متكئًا على عصاه وهو يتحدى العالم ، وهذه الصورة موجودة فى منزل عائلة العقاد فى مصر الجديدة ثم رسمته صورة ثالثة عام ١٩٤٢ تختلف تمامًا عن الصورتين السابقتين ، وكانت كل صورة رسمتها للعقاد تحمل رؤيتى الخاصة له طوال مراحل صداقتنا المتطورة .

توفيق الحكيم . . أسرع بورتريه

حكايتى مع توفيق الحكيم حكاية غريبة ، توفيق الحكيم صديق عمرى .. أول مرة التقيت به كان فى منزل العقاد ، ثم بدأنا نلتقى فى أحد مقاهى وسط البلد ، وبدأت أعمل له أول صورة عام ١٩٤١ ، وهذه الصورة اشتراها الكاتب المعروف الصاوى محمد بمبلغ مائة جنيه ، وكتب عنها الحكيم مقالة بعنوان « اشترانى بمائة جنيه » وكانت المائة جنيه فى ذلك الوقت تساوى عشرة آلاف فى وقتنا الحاضر .

ويضحك صلاح طاهر مسترسلاً مع ذكرياته : ويشاء القدر أن أعمل فى الأهرام مستشارا فنيا عام ١٩٦٦ وأفاجأ بأن حجرة توفيق

الحكيم هى الحجرة الملاصقة لحجرتى ، وكنا نلتقى كل يوم ، لم يكن يجلس فى مكتبه بمفرده أو أجلس أنا بمفردى فى مكتبى كنا دائمًا معًا فى مكتب واحد إما فى حجرته أو فى حجرتى ، وكنت أذهب إلى الأهرام لكى أجلس مع توفيق الحكيم .. ورسمت له صورة ثانية فى عام ١٩٦٨ وكان لها قصة غريبة جدًّا ..

كانت هذه الصورة مطلوبًا رسمها لكى تعلق ضمن صور كبار الشخصيات والكتاب فى معرض جريدة الأهرام الدائم ، ولتوفيق الحكيم صفة غريبة جدًّا وهى إذا تكلم لا يسكت ، وإذا سكت لا يتكلم ، وعندما قمت برسمه أخذ يتكلم ويتكلم وكان يعقد يديه تحت ذقنه مستندًا إلى عصاه وينتهى من قصة ليحكى قصة جديدة وينتقل من موضوع إلى موضوع ومن قضية إلى أخرى وفشلت فى رسمه ، والوقت يمر ومطلوب أن أقدم هذه الصورة فى أسرع وقت .

وفكرت فى أفضل طريقة لكى أجعل توفيق الحكيم يصمت عن الكلام حتى أتمكن من رسمه أن أدعو الدكتور حسين فوزى وهو صديق حميم لتوفيق الحكيم ليتحدث إليه ، وكانت هذه أفضل طريقة لأجعل بها توفيق الحكيم يصمت ليستمع إلى حديث صديقه د . حسين فوزى وأتمكن أنا فى نفس الوقت من رسم البورتريه ، وبالفعل جاء د . حسين فوزى وأخذ يتحدث إلى توفيق الحكيم الذى أخذ فى الصمت وسرح معه فى حواره عن باريس .

وانتهزت هذه الفرصة التى استمرت ساعة ونصفا أخذت أخطط فيها لأسرع بورتريه فى حياتى وقلت يومها لتوفيق الحكيم : « كفاية رسم اليوم » ونواصل جلساتنا مرة ثانية ، وكنت أحتاج خمس جلسات أخرى مع الحكيم لاستكمال صورته ، ولكنى فوجئت بتوفيق الحكيم ينظر للرسم التخطيطى لصورته ويقول : « أقسم بالله لن تضع يدك فى الصورة مرة ثانية » واندهشت وقلت له : ولكنها لم تكتمل ، إنها مجرد تخطيط ، قال لو وضعت فيها يدك سوف تفسدها وطلب محمد حسنين هيكل رئيس تحرير الأهرام فى ذلك الوقت ليأخذ رأيه فى الصورة الذى أكد هو الآخر بأن الصورة لا ينقصها شىء وأخذ توفيق الحكيم الصورة وأغلق عليها باب حجرته وذهب إلى منزله حتى لا أغافله وأستكمل الصورة ، والغريب فى هذه القصة أننى بعد عدة أيام اقتنعت بوجهة نظر توفيق الحكيم ورأيت أن الصورة لا ينقصها شىء رغم عدم اكتمالها من الناحية الفنية ثم وقعت عليها باسمى تأكيدًا لوجهة نظر توفيق الحكيم .

زوجة تيتو .. امرأة صلبة

وقال الفنان صلاح طاهر لى : من الشخصيات التى لا يمكن أن أنساها زوجة الرئيس اليوغوسلافى تيتو عندما طلب منى حسين الشافعى نائب رئيس الجمهورية فى ذلك الوقت أن أرسم هذه المرأة الحديدية ، كانت امرأة صعبة وقوية جدًّا ، وحاربت مع زوجها فى

الجيش وكانت تريد أن تحصل على الحكم وكانت فى زيارة حسين الشافعى ، ورسمتها فى منزله وكان أصعب شيء على أن أقوم برسم امرأة لطيفة المظهر ، فولاذية الشخصية ، واستغرق رسمى لهذه الصورة عدة جلسات ، وكانت جلسات صعبة ولكنها أنتجت لوحة أعجبت بها زوجة الرئيس اليوغوسلافى ، وأخذتها معها وغادرت البلاد .

ولم تكن زوجة الرئيس اليوغوسلافى تيتو هى المرأة المشهورة الوحيدة فى لوحات الفنان صلاح طاهر وإنما كانت هناك امرأة ذاع صيتها ودخلت قلوب العالم العربى ، وكان لها دورها البارز فى حياة الشعب المصرى عاطفيًّا ووجدانيًّا من خلال أغانيها العاطفية والوجدانية ، إن كوكب الشرق أم كلثوم كانت ظاهرة عصرها الذى عاش على ضفافه العاشقون فى كل مكان من العالم العربى ..

وعندما سألت الفنان صلاح طاهر هل ريشتك وضعت خطوطًا لوجه أم كلثوم ؟ فقال لى بتنهد ، وكأن يستجمع ذكريات بعيدة : كانت من أجمل الأصوات التى سمعتها ، ورسمتها مرتين ، وتوجد إحدى هاتين الصورتين فى منزل عائلة أم كلثوم . والصورة الثانية لم أنته منها بسبب مرض أم كلتوم ، ثم موتها فلم أتمكن للأسف من استكمال هذه اللوحة .

وكانت تربطنى بأم كلثوم علاقة صداقة عائلية ، كانت تحب ابنى أيمن وعندما كانت تزورنى فى منزلى كانت تقضى معظم جلساتها

فى مداعبة ابنى ، وكان رحمها الله تحب الأطفال ، وفى أول كل شهر كان لها حفلة غنائية ينتظرها عشاقها فى كل مكان ، وكانت دعوة لى ولزوجتى لحضور هذه الحفلات ، ولى صورة فوتوغرافية كبيرة مع أم كلثوم فى معرضى الدائم المقام فى مركب فرح على ضفاف النيل ..

أما الفنان الموسيقار محمد عبد الوهاب - للأسف الشديد - فلم أرسمه ، وقد غضب منى لأنه لم تتح لى فرصة رسمه ، رغم ما كنت أحمله له من مودة وإعجاب ، ليس من السهل على الفنان أن يرسم كل الشخصيات المحببة له فى حياته ، ولو كنت رسمت كل من التقيت بهم لكانت كل رسوماتى بورتريهات .

رسم الموسيقى

والموسيقى من الفنون التى أُعاد توزيعها الفنان التشكيلى بريشته وألوانه غاص بداخلها ومزجها بروحه وفكره وكيانه ، ليحولها فى النهاية إلى زيوت وألوان على لوحاته ، ومن هؤلاء الفنانين : الفنان صلاح طاهر الذى قال عن تجربته الموسيقية المرسومة : إننى من أشد المغرمين بالموسيقى وقد بدأت حياتى كعازف كمان ، وعندما اتجهت إلى التجريدية فى رسوماتى كانت الموسيقى مادتى للرسم ، فأنا أعشق الموسيقى وخاصة الموسيقى الكلاسيكية ، ومدرك تمامًا لقانون الموسيقى ، وأعرف جيدًا كيف تؤلف السيمفونيات وهو نفس

القانون الذى أرسم به لوحاتى الموسيقية بحيث يسمعها المشاهد بعينيه وليس بأذنيه .

وهناك مقولة مشهورة لشبنهور يقول فيها : إن كل فن فى الدنيا سواء أكان عمارة أم تصويرا أو قصة أو شعرًا يحاول الفنان فيه تحقيق قانون الموسيقى ، فالموسيقى قاسم مشترك بين كل الفنون ، وعلى حد قول نيتشه : لولا الموسيقى فى حياتنا لكانت حياتنا خطأ .

* قلت للفنان صلاح طاهر : إذا كانت الموسيقى لها تأثير فعال فى حياة الفنان صلاح طاهر ، فهل لديك طقوس معينة تؤديها قبل دخولك مرسمك كسماع الموسيقى مثلاً ؟

* الشىء الوحيد الذى أفعله قبل البدء فى رسم لوحاتى هو جلسات التأمل على انفراد ، وهذه الجلسات الهادئة تسبق عامة كل عمل فنى كبير ، وقد يستغرق هذا التأمل ربع ساعة أو عشر دقائق ، بالنسبة لى فأنا لدى قاعدة ، فأحيانًا أدخل الاستديو وأعمل بلا تأمل ، لكنى فى العادة الأعمال الكبيرة المعقدة يسبقها لحظات تأمل ، وقد تكون قبل الرسم بيوم أو يومين .

والشىء الذى لا تعرفينه هو أننى من هواة اليوجا ، ليست اليوجا الجسدية ، وإنما اليوجا الروحية والنفسية والعقلية ومنها يوجا جلسات التأمل لفترة من الزمن ، وهذه الرياضة تريحنى وفى نفس الوقت تسمح له بتخزين الشىء الذى أريد أن أقدمه فى عملى الفنى ..

* قلت له : هل اليوجا نظام يومى فى حياتك ؟

* قال : إن اليوم السعيد فى حياتى هو الذى أقضيه بعيدًا عن اللجان الرسمية التى تقتل وقتى كفنان ، فأنا رئيس لأربع لجان وكلها تأكل وقتى ، وكلما قدمت استقالتى منها تقابل بالرفض ، فأستيقظ فى الصباح الباكر ثم أمارس قليلاً من تمارين اليوجا ثم أتناول إفطارى وإذا لم يكن لدى مواعيد لجان خارج البيت أدخل الاستديو لأرسم ، ثم أتناول غدائى فى الواحدة والنصف من كل يوم ثم أغفو قليلاً ، وأعود مرة ثانية بعد الظهر لممارسة رياضة اليوجا ثم أعاود الرسم فى مرسمى الكائن فى بيتى ، وفى حالات كثيرة ألغى مواعيدى التقليدية من أجل الرسم .

أما قراءاتى فهى تأتى فى المساء وقبل ذهابى إلى فراشى للنوم ، وقد تسرق النوم منى فأستمر فى القراءة حتى ظهور خيوط الفجر ، وقراءاتى متنوعة وما أقرؤه فى هذه الأيام كتاب عن « التطور الخلاق » للفيلسوف يرجسون ، وقد قرأت هذا الكتاب منذ خمسة وعشرين عامًا ولكن هناك بعض الكتب التى أعيد قراءتها من حين إلى آخر .

إن إعادة النظر بين وقت وآخر فى بعض المسلمات التى نعيش بها ، وقد يرى البعض أنها انتهت ، هذا غير صحيح ؛ لأن المفاهيم دائمًا متغيرة مع كل زمن وعصر وإعادة النظر ضرورة للإنسان المتحضر المثقف ، فالقيمة ثابتة ولكن مفهومها متغير ومختلف من زمن إلى آخر ، والأمثلة كثيرة ومتنوعة كالديمقراطية والحب ...

الرجل الفنان يضع للحب ملامح
والمرأة تضع للحب مواقف !

يوسف فرنسيس

✳ حوار مع رجل جوزائى

العلاقات الحميمة ذات الاقتراب الشديد ، كالأصبع التى توضع أمام العين ، فتحجب الشمس وتزيل المسافات بين الأشخاص وبعضها، وهذا الاقتراب قد لا يجعل الرؤية واضحة .

هذا ما حدث لى عندما جلست أمام الفنان يوسف فرنسيس لإجراء حوار معه .

لقد فوجئت بأن لدى إجابات وليست أسئلة ، ولذا تركته يتكلم وكأنه حوار بينه وبين ذاته ، أو بمعنى آخر اعترافات بين فنان وإبداعاته وشخوصه ولوحاته .

وتبادلنا حوارًا ذاتيًّا وكأننا فى جلسة «يوجا» ، لم يعتدل فى جلسته ولم يحرك جهاز التسجيل ، ولم يدرك وجودى، وكانت جلسة غير عادية، كان حوارًا ذاتيًّا بصوت عال.

* أنا نفسى شجرة من شجرات الفن ، اعتقدت فى البداية أنها فن تشكيلى ، وأن الفاكهة الخاصة بها مجموعة ألوان على سطح لوحة ، ثم اكتشفت فجأة أنها شجرة كلمات ، وأنه ممكن كل صباح مبكرًا لو وضعت ورقة بيضاء تحت هذه الشجرة ، أجسد مجموعة كلمات يمكن أن تكون لوحة ، أو فيلمًا مجموعة كلمات متجه على الشاشة أو حلف الشاشة السينمائية ، ومع الوقت والعمر والزمن اكتشفت أن هذه الشجرة يمكن أن تضم سبعة فنون مجتمعة ، ولو نظرت بداخلها لوجدت صندوقًا سحريًّا مثل الذى كنت أضع فيه عينى وأنا طفل صغير فى المطرية ، وأعطى صاحبه خمسة مليمات لأتفرج عليها ، أنا الذى أعملها .

واكتشفت مع الوقت أن شجرة الفن بالسبة لى - ولحبى لها - أننى أرى وردها وثمارها ، وفى مرحلة الصعود إليها لقطف هذه الثمار والورود لم أنتبه إلى نقط الدم الناتجة من الأشواك ، لأنها من بعيد لا تظهر أشواكها ولا تظهر للعين البعيدة أو القريبة ، ولكن باللمس المباشر تكشف عن حقيقتها الشائكة . والمقدر للواقعية أنها تجرح فقط باطن اليد وليس باطن القلب .

الفن التشكيلى مختلف فى اقترابى منه ، أو اقترابه منى عن أى فنان آخر ، فالفن التشكيلى بالنسبة لى لم يكن هواية ، ولم يكن احترافًا ،

ولكنه هواية الاحتراف ، واحتراف الهواية ، لأننى مؤمن دائمًا بأن كل لوحة جديدة هى ، مغامرة ، وتعلم ، واكتشاف ، وأنا أومن بأننى لو أدركت مسبقًا ، أو على الأقل ماانتهيت إليه لوحة لن أرسمها ..

اللوحة هى علاقة فهم كامل ، فقد تعطينى اللوحة من الصبر والحب والتحمل ما لا أجده فى غيرها ، اللوحة بالنسبة لى كيان .

الفن التشكيلى هو فن صنع قاربًا للنجاة من واقع الحياة وواقع الآلام ، هو فن صناعة قارب يطير بنا من الواقع إلى الخيال .

وبشكل أعم ..

تفسيرى للفن ، هو إجابة لسؤال يفترضه الفنان سواء أكان مصورًا أم مخرجًا سينمائيًّا أم كاتبًا ، فقد يسأل ما هو الحب ؟ وتكون الإجابة : لوحة أو كتابًا أو فيلمًا سينمائيًا ، أو غنوة ، وقد تتحول الإجابة إلى عمل فنى واقعى أو عبثى أو سيرالى ، حسب تفسير الفنان له والمدرسة التى يخضع لها .

ولكن أنا أختلف مع التجريد ، لأن التجريد لا يعطينى سؤالاً أو إجابة ، وإنما يعطينى حالة ، ولا أصل فى النهاية إلى جملة كاملة وأنا أصل إلى حرفة لتوازنات تشكيلية ، يمكن أن تدخل تحت تأثير التجارب العملية .

وإجابة : ماذا يعنى الفن ؟ تستوقفنى كفنان وتثير دهشتى وحيرتى وتجعلنى أبحث عنها فى أعمال غيرى من الفنانين ، وفى متحف

اللوفر أجلس لساعات طويلة أمام أعمال ليوناردو دافنشى لأعرف الحكاية وراء لوحاته ، وتكون الإجابات دائما عميقة ، وعندما تتحرك هذه الإجابات داخل الفنان ، تصبح وسيلة من وسائل التعبير لديه .

* فى طفولتى لم أعش مع والدى ووالدتى لأن أمى ماتت لأكون أنا ، وعشت فى منزل عمتى ، ونشأت وسط أولاد عمتى ، وكنت أنادى أبى - بخالى - مثل أولاد عمتى ، وكان أبى يهدى لى كلما جاء ليرانى ورقًا أبيض بكميات كبيرة ، وكانت عمتى تقول له : لماذا لا تشترى له أشياء مفيدة بدلاً من الورق الأبيض ، ولم تكن عمتي تعلم أن الشىء المفيد بالنسبة لى هو الورق الذى جعل منى فنانًا ، الورق وسيلة التعبير ، وهذه الأشياء البسيطة كان لها أثر فى حياتى ، وأعطانى ابن عمتى قلم حبر أسود للرسم الهندسى .

وبدأت سكة الفن بورق أبيض وقلم أسود حتى وصلت إلى كلية الفنون الجميلة ، والذى ساعدنى على ذلك امرأة اسمها «درية شفيق» وكانت صاحبة مجلة اسمها « الكتكوت » التى كنت أرسل لها رسوماتى من خلال المسابقات الفنية التى كانت تقام للأطفال ، وحصلت على الجائزة الأولى « علبة ألوان » ووجدت نفسى أملك علبة ألوان ، ومسئولية فنية هى حصولى على الجائزة الأولى ..



كنت أريد أن أدخل كلية الهندسة مثل ابن عمتى ، ولكنهم قالوا لى: كلية الفنون تشبع هواياتك أكثر، وذهبت لامتحان كلية الفنون الجميلة وقد نسيت مسطرة «الحرف T» فى القطار ورسمت خطوطًا بلامسطرة وقال لى الأستاذ حسن البانى: خطوطك حلوة تعال إلى الفن.

أول موديل فى حياتى . . . ركاب الدرجة الثالثة !

ولأننى كنت أسكن فى حى المطرية ، وكلية الفنون الجميلة فى الزمالك ، كان يجب علىّ أن أركب القطار كل صباح ، وكنت أجد ركاب الدرجة الثالثة ذات الكراسى الخشبية وحكايات الناس البسطاء، وكنت أرسمهم وهم لايدركون، وكانت موديلات طبيعية من الواقع ، لم أرسم فازات الزهور أو الستات الحلوين الذين يرتدون « الفرو » .

فى الفن قسوة مع الذات ، وكان أستاذى يطلب منى أن أرسم من خيالى ، أنظر للموديل مرة واحدة ثم أدير ظهرى لها وأرسم من الذاكرة ، وعندما سألته لماذا أنا ؟ قال لى : أنت فنان .

والرسم من الذاكرة أفادنى فى الصحافة ، والتى تتطلب أن يكون الفنان واعيًا واقعيًا لكل ما يراه ، ثم أفادنى فيما بعد مع السينما ، السيناريو ما هو إلا مشاهد من الذاكرة .

* ... ...

* الفن فى حياتى لم يكن عفويًّا، كان هناك ناس بمثابة إشارات المرور للسيارة التى هى أنا ، فتحوا لى الإشارات الخضراء .

ففى كلية الفنون الجميلة كان الفنان حسن بيكار الذى أعطى له مكانه فى رسم السندباد .

والمنتج أحمد المصرى أعطانى فرصة إخراج أول فيلم سينمائى فى حياتى للسينارست الصديق فاروق سعيد .

وخليل شوقى غامر معى عندما قمت بعمل ديكور فيلم « لا » بعد أن تركنى المخرجون المنفذون ، كل هؤلاء كانوا إشارات خضراء تحكمت فى طريق حياتى ..

* ... ...

* السينما نمت فى خيالى ، لا يمكن أن أنسى أول فيلم شاهدته وأنا طفل صغير . كان اسمه « شبح الأوبرا » وكنت مرعوبًا من الخوف ، ولكنى شاهدته وأنا مفتح العينين ، السينما هى الحياة فى الخيال ، وأنا كفنان تشكيلى أرسم الخيال .

عندما كنت طفلاً لم يكن لدى لعب ألعب بها ، أولاد عمتى كانوا أكبر منى وكنت ألعب مع القطط والكلاب والثعابين ، وكبرت ، وظل الطفل بداخلى يريد أن يلعب وهذا الذى قال بيكاسو : لحظة لعب الطفل هى لحظة النشوة الكبرى التى يملكها

لحظة الصدق ، فلا نستطيع أن نجذب الطفل من أمام لعبة ، فيمكن أن نجذبه من أمام الطعام لكن من أمام لعبة ، فأمر مستحيل .

وعندما كان يرسم بيكاسو ، كان يرسم حافى القدمين ونصف عار ، فلماذا كان يضع بيكاسو نفسه فى هذا « المدد » ، الإحساس ! لأنه اكتشف بداخله الجزء الذى لا يكبر ، والفنان يظل فنانًا عندما لا يفقد انبهاره بالحياة ، والذى جعلنى أحب السينما ، هو الذى جعل أى طفل يحب السينما وهو تقليد الحياة .

ست جليلة .. رسمتها مع أولادها

* الوحدة فى الطفولة وعدم وجود أم فى حياتى كان يمكن أن يهدم حياتى ، وكان مشروع الدبلوم عن الأمومة أنا الذى لم أعرف يعنى إيه أم ؟ ! وظللت أبحث عن أمى فى كل مكان عند المرأة التى ترضع طفلها فى الأتوبيس ، والمرأة التى أنجبت ثمانية أطفال ، ووجدتها فى ست جليلة الموديل الذى رسمه كل زملائى فى أوضاع مختلفة ، ورسمتها أنا وهى تتناول الطعام مع أطفالها .

إن فقدانى لأمى ، جعل كل علاقاتى حميمة ودافئة ، يوم ما قالوا لى : إن أمى ماتت وهى تلدك ، شعرت بأنى المسئول الأول عن



موتها لأنها حملت وأنجبتنى ، وكان الحمل والولادة خطران على حياتها ، وماتت هى وجئت أنا للحياة ، وهذا جعلنى باستمرار أريد أن أعمل شيئًا ليس له علاقة بتحقيق النجاح أو السعادة أو ...

أحزانى تخرج من رحم فرحى والفرح لدى ينبعث من رحم الحزن ، الإحساسان متداخلان ، لأن لحظة ميلادى جاءت من لحظة فقدانى لأمى ، وأشعر بالبرودة عندما أفتقد شيئًا أحبه .

* أنا إنسان غريب مع نفسى ، بمعنى أنه يمكن لى فى لحظة من اللحظات أن أبدأ فى عمل يستغرقنى ولا أرسمه ، ويظل عنصر الاكتشاف بداخلى سواء فى الفن أو فى السينما .

* فى فيلم « عصفور من الشرق » سألت نفسى : لماذا لايمثل توفيق الحكيم نفسه ؟ لماذا أبحث عن ممثل يؤدى دور توفيق الحكيم ؟ هل لأن الإنسان ممثل ردىء لنفسه ؟ أحيانًا نعم وأحيانًا لا ، وكان مفاجأة أن توفيق الحكيم أجاد التعبير عن نفسه ، وفى التنفيذ كان لدى كاميرا وممثلون وحوار ، وكنت أحتاج إلى الإرادة لتنفيذ هذه الفكرة ، إنه عذاب الفنان الحقيقى ، أن يحول أفكاره إلى عمل يرضى عنه ، دائمًا بطلات الكتب أحلى من بطلات الواقع !

* الفنان بيكار عرفنى على بلاد كثيرة ، كنت فى مصر وعشت فى أسبانيا مع مصارعة الثيران ، وفى فرنسا وأجوائها الفنية لأنه كان يسافر بريشته ، ولم يكن أمل حياتى يتحقق وأنا فى كلية الهندسة ، أنا تلميذ وصديق للفنان بيكار ، هو مستشارى فى حياتى يتابع أحلامى وآمالى وأحزانى ، إنه معلم ، والمعلم يملك أولاً حب الحياة وكيف يمكن رسمها بطريقة صحيحة .

* قال عنى الفنان بيكار : إننى ملك الشطحات ، بيكار لديه نظرة مثالية ، لكن احتكاكى بالحياة كمخرج سينمائى وكاتب سيناريو جعلنى لا أرى المثالية فى كل الأعمال ، فعندما أعود للتشكيل أعود بتجربة غير مثالية ، ويمكن أن نطلق على هذا الفن شطحات .

ذات يوم أقمت معرضا كله ساعات قديمة ، لأننى أحسست أن الساعة القدمة عاشت حياة وأنا أريد أن أعطيها حياة إضافية ، حتى لا تصبح ساعات محطمة ، بل تتحرك من جديد فى زمن جديد ، إنها شطحة فنية خارجة عن المألوف .

* بيكار يعرف نفسه جيدًّا ، وقد رسم نفسه لأنه يعرفها ، أما أنا فلا أعرف نفسى ، أنا بودليرى وكان بودلير ينام تحت سريره حتى

يدهش نفسه ، إننى أرى أن الإنسان فى كل يوم إنسان جديد ، وبرؤية جديدة ، وخبرة جديدة وإحساس جديد .

* رسمى للموسيقى لم يكن شطحة وإنما كان احتياجا ، لأننى لم أستطع أن أكون موسيقارا ، ولو سألتينى ماذا تحب أن تكون ؟ لقلت لك : أحب أن أكون عازفًا ، فنانًا أعزف على آلة صغيرة اسمها « الهارمونك » ويمكننى وضعها فى جيبى ، وهى آلة نفخ قريبة من النفس ، وقريبة من القلب ، ولا أعزفها بنوتة ، وكنت أرى فى النوتة شيئًا فوق الحب ، النوتة معجزة بالنسبة لى مثل « بريل » بالنسبة للمكفوفين .

ودارت الأيام وعرفت الموسيقى الكلاسيكية على يد الدكتور ثروت عكاشة الذى جعلنى أحبها أكثر ، وعرفنى بمؤلفين ، وسمعت الموسيقى ولذا رسمتها أبيض وأسود ، نوتة مرسومة ، بتغنى لوحدها رأيت فيها معانى أخرى .

رسمت عشر سيمفونيات ، وهى السيمفونيات التى أحببتها فى حياتى وعاشت معى ، وسافرت معى ، وصاحبتنى فى رحلة الحياة ، حياتى منذ بدأت سماع الموسيقى وحتى الآن ما زلت أسمعها ، إنهم أصدقائى ، شاهدوا أحزانى ووحدتى ، ولا أستطيع أن أعيرها لأحد ، أن لا أعير أحدًا كتابًا أو أسطوانة ، قد أعيره سيارتى أو حتى ملابسى ،

لكن هذه الأشياء هى كنزى الخاص بى ، فهم أسرع الأصدقاء وقت الحاجة ، فالموسيقى أعطتنى الكثير ، فأردت أن أرد لها الجميل فرسمتها !

* لاأعرف كم معرض أقامته تواريخ حياتى متداخلة ، لكن تواريخ الأيام التى أثرت فى حياتى أعرفها ، فهناك أيام تترك أثرًا فى النفس ، وأيام أخرى تمر دون علم منا .

* عندما أرسم لوحة أستعد لها ، وأملك فيها ناصية نفسى ، إننى أرفض رسم شخص بصحبة شخص آخر فيأتى لمرسمى لأرسمه ، دخولى مرسمى هو لحظة أكون فيها قريبًا جدًّا إلى نفسى ، أنا لا أرسم الصورة فى خيالى قبل الواقع ، لكننى فى العمل السينمائى قد أذهب إلى البلاتوه قبل كل العاملين وأتخيل كل المشاهد حتى تكون عند التنفيذ مطابقة للواقع .

* ليس لدى تقاليد أمارسها قبل الرسم ، فاللوحة لها الأولوية ، هى البطل ، لدرجة أننى أحيانًا أخرج وأتركها فى المرسم .

* نعم ، إننى أشبه نفسى بالماء ، بمعنى أننى سهل جدًّا ، ولكننى لست سطحيًّا فالماء يجب أن يكون لديه الوعاء ليحتويه ، ويمكن

أن نضع الماء فى فاز كريستال ، ويمكن أن نرتوى به ، ويمكن أن يفلت من بين أصابعك .. اعرفينى جيدًا حتى أعطيك فنًا ، أعطيك محبتى صداقتى ، لكن لو وصفنى أحد بأننى زئبق ، أقول له : لو جلست فى مكان لا يعجبنى أظل فيه صامتًا ، وربما تنقطع كل وسائل الإرسال والاتصال بينى وبين المحيطين بى فأنا لست زئبقًا ، الزئبق هو الذى يختفى فى ظروف لا تعرفها ، وفى وقت لا نعرفه ، لكن الماء قد تتسرب فى مكانها وهى باقية أو تتبخر ، ولا يمكن تجميعى ، لأن سحابتى عالية ، ولو تبخرت فإننى أتحول إلى سحابة لا يمكن أن تطال ، لذلك أنا بدأت حياتى بالرسم بألوان الماء على الورق ، ألوان الماء لا يمكن تغييرها مثل ألوان الزيت التى يمكن أن تضيف لها أو تغير من درجاتها .

الرسم بالماء .. رسم المساحات الشاشعة من السماء والخضرة والسحب والخطوط اللانهائية ، إنه يستخدم فى ورق شفاف مع شخص شفاف أيضًا ، ثم نبدأ فى التفتيح والتغميق وهذا يأتى خطوة خطوة ، لذلك أننى أعشق البلدة الوحيدة التى تعتمد فى سلوكها على المياه أنها «فينسيا» أنا كائن مائى .

المثل الفرنسى يقول : انظر للإنسان من وجه الحقيقة والحقيقة دائرة كروية ، أين وجهها ، وأين ظهرها ؟ لكن لو رسمنا عليها

لاستطعنا تحديدها ، كذلك الوجه المرسوم والوجه غير المرسوم ، وكل إنسان مثل الكرة الأرضية .

* الفنان يختار عائلته أو على الأقل عائلته الفنية ، وهى عائلة غريبة فيها ليونارد دافنشى ، وبيكار وموديليانى الفنان الإيطالى الفذ الذى هزمته باريس ولكنها لم تهزم فنه ، بيكاسو بكل شطحاته الغريبة التى أصبحت فيما بعد مدرسة تركها لغيره ليكملها ، هذه العائلة فيها أيضًا نجيب محفوظ الذى تعلمت منه الرسم الصحفى من خلال شخصيات رواياته التى تتميز بالمضمون والشكل والتصرف ، وهذه العائلة دائمًا بجوارى فى المعارض والمتاحف وفى الكتب ، أما فى السينما فيوجد كمال الشيخ بهدوئه ، لا يمكن أن نجد مخرجًا ناجحًا وهو يصرخ ، هناك مخرجون كثيرون يمثلون فى البلاتوه وعلى الشاشة لا نجد شيئًا ، المخرج بركات وتعامله الرقيق ، فيللينى بشطحاته وأنطونيونى برموزه ، والبحث عن الحقيقة التى لا نجدها مثل مباراة كرة قدم بلا كرة ، هؤلاء هم عائلتى الذين تأثرت بهم .

*- الفرق بين المثالية والرومانسية ، المثالية فى النسب الجميلة ، لكن الرومانسية فى التناول ، إنه فرق بسيط ، وأنا رومانسى ولا أعمل

شيئًا مثاليًا ، ويمكن أن أقدم المثالية ولا أقدم الرومانسية ، لأن الرومانسية سلوك ، والمثالية فلسفة ، إننى رومانسى أنشد المثالية ، والمثالية تجدينها فى لوحة غير محددة الملامح ، رغم أن عناصر الصورة كلها رومانسية حادة إلى حد تصل إلى المثالثة .

إنه لابد من اختيار أصل الكلمات إذا عبرت عن أسوأ المواقف فى الحياة ، إذا أردت رسم « خرابة » فمن اللازم أن أختار لها أسلوبًا وطريقة تجعلنى أرى فيها جمالاً ما .

وهنا أريد أن أقول لك نصيحة : لا تعط ابنك علبة ألوان رديئة ليتعلم الرسم ، أعطه ألوانا أحسن من ألوان الفنان ، وورقًا أفضل من ورق الفنان ذاته، حتى يتعرف على اللون الحلو والكلمة الحلوة .

* المرأة فى حياتى معنى ، لأن أمى ماتت ولم أرها ، وظلت فى حياتى معنى ، والمعنى أكثر من الواقع ، المرأة عطاء وإذا فقدت هذا العطاء فقدت كينونتها كامرأة ، وهذا العطاء ينحصر فى الأمومة ، لكن هذا الرأى قد لا يعجب كثيرًا من النساء ، لأنه يطالبها بأن تكون دائمًا «مضحية» وهى نظرة مثالية للمرأة، وحقيقى أن حاجة الفنان ليست دائمة بالمرأة المثالية ، ولكن يجب أن تعلم المرأة هذه الحقيقة عن نفسها وأن دورها الحقيقى هو العطاء .

وهناك المرأة التى لا أعرفها ولم يعرفها أى فيلسوف ، المرأة اللغز ، الغامضة ، هذه المرأة أراها فى اللحظة التى أريد أن أراها فيها ويتحقق ذلك فى السينما .

* الجمال يعنى لى ، إشعاع لحظة صدق كاملة فى الوجه يتجمل به ، لكن المرأة النسب أقصد « المانيكان » لا تمثل جمالاً بالنسبة لى ، فهناك النجومية والتمثيل ، وأؤكد لك أن جمال المرأة لا يضعها بالضرورة فى مقعد النجومية ، فهناك الكاميرا التى تفرق بين فتاة الغلاف وفتاة الأعماق (النجمة) .

الرجل الذى أخشاه

أخطر رجل يمكن أى إنسان أن يلتقى به هو نفسه لو أصبح عدوه ! فلا يمكن حداعه ، ولا يمكن إدراك إذا كان عدوًّا أو صديقًا ، ودائمًا يشكك فى صدق فهمه لما نقدر .

وهذا الشخص الآخر - دائما - يقتحمنى ، إما يدفعنى إلى العمل وإما ينقذنى بشدة ، والغريب أن بين الأول والثانى قدم واحدة ، وهذا شىء مزعج ، وكلما كان الثانى قويا استطعت أن أستخرج الأفضل من الفنان الأول .

أنا مؤمن أنك تستطيع أن تخدع العالم ، ولكنك لا تستطيع أن تخدع نفسك ، ويبدو أحيانًا أنه لا تأثير للناقد على الفنان ، فقد تصدر منه وجدانيًّا كلمة عابرة ، أو تعبير أو اقتراح يبدو بريئًا ، فيغير هذا الاقتراح من حياة الأول ، الفنان .

وذات يوم كتبت سيناريو لأحد الفنانين، وكنت أحس طوال العرض أن هناك اختلافًا بين روح ماكتبت وروح الفيلم، وهنا قال لى الناقد الداخلى: لماذا لاتدخل معهد النقد وتدرس النقد؟ هذا الآخر التوءم.. هذه النفس الداخلية المستترة وتقديرها (أنا) تملك القدرة على التعبير والنقد والتغيير والصراع الدرامى الحقيقى معى، ليس أنا والآخرون، وأنا لاأعرف الغلبة فيها لمن؟ والخوف الأكبر عندما يتحد الآخر مع الآخرين، بمعنى أن يعضد الآخرين فى رأيهم فى عمل أى شىء قمت به، وهذا الشخص يجب أن يعيش مع الناس الذين يحققون له مناخًا فنيًّا، والحرب بين الاثنين فى النهاية ليست حربًا بقدر ماهى الود الذى يبحث عن الأفضل، والخوف فيها ليس خوفًا حقيقيًّا وإنما هو خوف افتراضى.

* * *

كانت بداية تجاربى فى درب اللبانة وبدأت رسم اللوحات الزيتية قبل الستينيات واستخدمت الفرشاة والألوان ولكنى وجدت أن التصوير الزيتى لم يعد يكفى ما يحدث فى رأسى !

منير كنعان

* الفنان الذى وضع الرمل على لوحاته

الفن والجنون متشابهان .

فكلاهما يخلق لصاحبه عالمًا خاصًا به منفصلاً عن العالم الخارجى الذى يعيش فيه بقية الناس الطبيعيين ، ولكن لماذا لا يصبح كل نزلاء المصحات العقلية عباقرة خالدين ، يمنحون جوائز نوبل وتقام لهم المتاحف والتماثيل ؟

السبب بسيط وهو أن الفنان يختلف عن المجنون ، يختلف فى أنه يستطيع أن يدخل الآخرين فى عالمه الخاص ، بينما المجنون لا يستطيع ! ، هذا ما قاله الفنان الراحل صلاح جاهين على لوحات الفنان منير كنعان ، فنان الكولاج الأول فى مصر .

والكولاج هو فن الكراكيب أقصد فن التراكيب، وعندما سأل منير كنعان صلاح جاهين عن رأيه ، قال له : أنت رجل مجنون ، ومع الجنون

والفن والعبقرية كان الحوار مع رائد فن الكولاج الأول فى مصر ،

* سألته : ما هو فن الكولاج ؟

* قال : هو فن تصوير مضاف إليه قطع يختارها الفنان مثل القماش أو الخيش أو الأخشاب والخوص والسلك .

وعندما أقوم بتركيب خشب على خشب يسمى فن التراكيب ، لكن فى فن الكولاج يمكن أن تختلط الألوان مع الكرتون التى قد أمزق منها أشياء وأضيف إليها أشياء ، وممكن أن أضيف عليها أوراق الجرائد .

* قلت : هل يمكن أن نطلق على فن الكولاج ، فن الصدمات ؟

* قال : بل يمكن أن نطلق عليه فن « الدهشة » مطلوب فى الفن أن يجعل مشاهده فى حالة دهشة ، وهذه الحالة تجعله يصر على أن يفهم . فالدهشة نوع من « جر شكل المشاهد » لأن مشاهد فى الكولاج لن يرى شجرة أو إنسانًا أو نهرًا ، فن الكولاج مرتبط بالتجريد ، أقصد مرتبطًا بالمطلق .

* قلت : ماذا تعنى بالمطلق ؟

* قال : المطلق الذى يعطى فرصة للفنان أن يلف حول المساحة فى اللوحة ، فنان الكولاج مثل المهندس المعمارى .

* قلت : متى بدأ تحولك من فنان زيتى إلى فنان الكولاج ؟

* قال : بدأت رسم اللوحات الزيتية قبل الستينيات واستخدمت الفرشاة والألوان ، ولكنى وجدت أن التصوير الزيتى لم يعد يكفى ما يحدث فى رأسى فاضطررت إلى استخدام خامات متعددة ، منها الورق الملون المرسوم ، وبدأت أضيف على اللوحات « الشاش والقماش » ، وكانت بداية تجاربى فى « درب اللبانة » وكنت أول واحد لزق الرمل على اللوحة ، كانت بدايات متعددة ، ومن هنا أطلقوا على فنان الكولاج فنان التراكيب . أنا أول من لصق الخشب فى اللوحات الورقية ونشرتها فى مصر ، ثم انتشرت فيما بعد فى العالم .

* قلت : من أين تحصل على خامات لوحاتك ؟

* قال : من كل مكان من الخامات الخشبية والصاج والحديد من الأشياء القديمة ، وأفضل مصدر لهذه التراكيب أو الكراكيب من وكالة البلح ، الفن لم يعد اللوحة والزيت والفرشاة والبعد الثالث .

* قلت : من أين تستمد أفكارك ؟

* قال : من تجاربى واتصالى الدائم بذاتى .

* قلت : هل معظم لوحاتك عفوية ؟

* قال : تقريبًا لوحاتى كلها مقصود بها العفوية .

* قلت : هل فن الكولاج يمكن أن يعبر عن مشاكل الحياة ؟

* قال : إننى أستخدم أرقامًا وألوانًا وخامات موجودة فى حياتنا ، وهل تخلو الحياة من الأرقام أو من الألوان ، ولكن فن الكولاج أساسًا

فن تراجيدى فهو يعبر عما يعكسه على كل من يراه حسب ما يشعر به .

* قلت : الجولات الصحفية المرسومة ، لماذا لم تستمر فيها ؟

* قال : أنا أول من قام بالجولات الصحفية المرسومة وقد بدأتها فى الخمسينات أيام الثورة حيث رسمت المحكوم عليهم فى ثورة يوليو وكان ممنوعًا دخول كاميرات التصوير ، ورسمت اسكتشات سريعة فى جولات متعددة كنت أذهب إلى دار الأوبرا وأرسم الباليرينات داخل حجرات ملابسهن ، ورسمت من داخل مستشفى الأمراض العقلية ومن داخل السجن والمعتقلات وفى كل الأماكن التى منع فيها التصوير الفوتوغرافى ، ثم تناقلت روز اليوسف ومجلة صباح الخير المواضيع الصحفية المرسومة .

* قلت : وما هى حكاية بنت البلد ؟

* قال : « بنت البلد » على باب الحارة رسمتها على أغلفة مجلة آخر ساعة فى عام ٥٣ ، وأدخلت الرسومات على أغلفة المجلة

* قلت : هل أنت خريج كلية الفنون الجميلة ؟

* قال : أنا فنان حر ، تعلمت الرسم ، وعلمت نفسى ، ورسمت إعلانات فى مطلع حياتى ، واشتغلت مع محمد التابعى ، واشتركت فى تطوير مجلة آخر ساعة فى الأربعينات .

* قلت : هل السينما استطاعت أن تعبر عن الفن التشكيلى ؟

* قال : نعم ، إن معظم المخرجين والمصورين السينمائيين الناجحين هم فى الأصل فنانون تشكيليون ، السينما فى أوربا فن تشكيلى .. المصور السينمائى يقدم لوحات فى أفلامه .

* قلت : هل المسرح الحديث استفاد من الفن التشكيلى ؟

* قال : الديكور الخلفى والملابس والحركة على المسرح .. كل هذه الفنون فن تشكيلى ، حتى الحركات الجسدية .

* قلت : هل تسمع الأغانى الشبابية ؟

* قال : إننى أتابع حركة الغناء الحديث ويعجبنى على الحجار ، كنت من عشاق عبد الوهاب وعندما ظهر عبد الحليم حافظ أحببته ، ويجب أن يتعلم الجدد من تجارب وخبرات الفنانين الذين سبقوهم لا يقلدونهم وإنما يستفيدون من تجاربهم فى تطوير فنهم .

* قلت : بعيدًا عن الفن والجنون والصحافة ما هو تأثير المرأة فى حياتك ؟

* قال : المرأة لها دور أساسى فى حياة أى رجل ، سواء أكان فنانًا أم رجلاً عاديًا .

وعندما التقيت مع سناء البيسى كانت طالبة غاوية فن ، علمتها الإخراج الفنى ثم أصبحت ناقدة لأعمالى ، وأصبحت أنا فيما بعد ناقدًا لأعمالها ، وأول قارئ لمجلة « نصف الدنيا » .

* قلت : ماذا عن الفنان الأب ؟

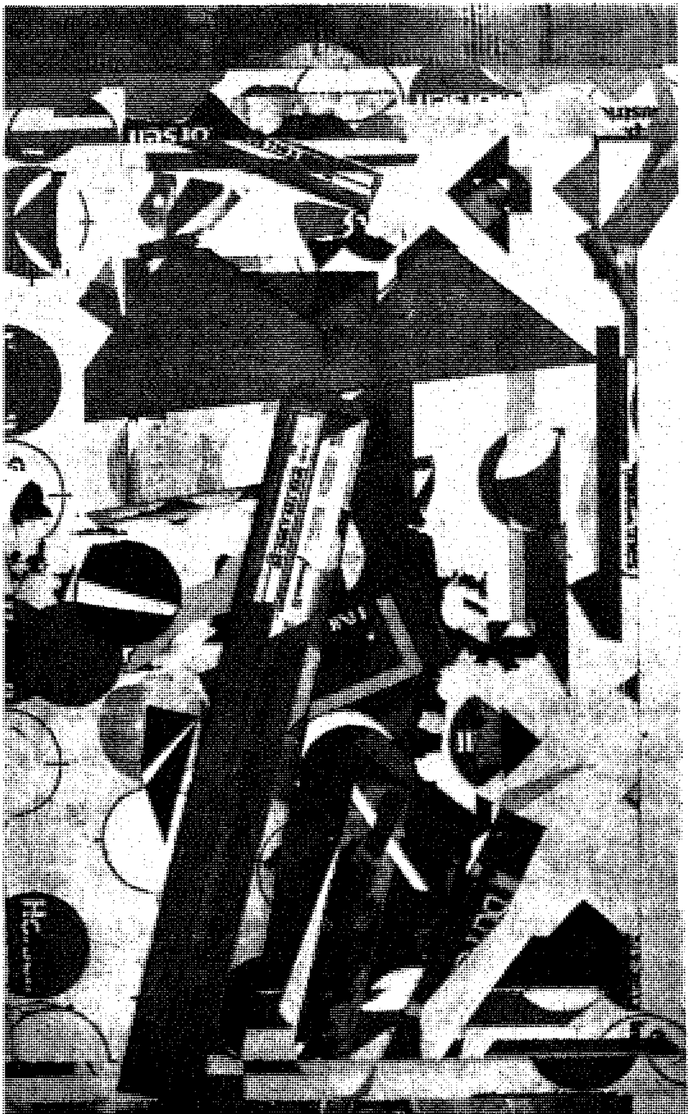
* قال : أنا أب لابنى هشام الذى اتفقت مع أمه من البداية على تعليمه فى مدارس لغات ، ثم اختار كلية السياحة والفنادق لينطلق بنجاح فى عالم الفندقة ، هشام أول ناقد لأعمالى أيضًا ، إننى أستشيره فى لوحاتى ، هشام لم يعمل فى الفن رغم اشتغالى بالفن واشتغال أمه بالصحافة .

* قلت : هل أنت مؤمن بالأبراج ؟

* قال : نعم أنا من برج الدلو ، وسناء البيسى من برج الأسد ، وهذان البرجان متوافقان .. الأسد عاطفى وبسيط ومعرفتى لصفاته جعلتنى أتعرف على كل صفات سناء ، إن الأبراج كيمياء جسدية ، برج الميزان مثلاً عاطفى وهو برج أفضل من الجوزاء ومن الدلو رغم أنهم يجتمعون فى أنهم هوائيون ، الجوزاء لديه شراهة فى تنفيذ أعماله ، وإذا أراد أن يفعل أى عمل لابد أن ينجزه ، أما برج الدلو فأهم ما يميزه أنه لا يتأثر بأحد ، ولديه الامتلاء الذاتى .

ويقول الفنان كنعان : فى البداية أعطيت سناء كل ما تحتاج من حرية مطلقة وهى تقول : لولا أن كنعان علمنى كيف أنسلخ عنه تمامًا لما كنت رئيسة لتحرير مجلة نصف الدنيا .

* قلت للفنان منير كنعان : هل هذا هو الحب فى رأيك ؟



* قال : أنا فنان تجريدى ، واحتياجاتى قليلة وما دام لا توجد مشاكل كبيرة فلماذا أضيق الخناق على من حولى .

* قلت : هل نجاح الزوجة يدفع ثمنه الزوج ؟

* قال : الحضارة تعمل نوعًا من التوازن ، وإذا لم أكن أتمتع بقليل من الحضارة لما استمرت الحياة الزوجية بيننا ، وأنا رجل سعيد فى حياتى ، لأن أسلوب الحياة اختلف ، ويجب أن « نفوت » لبعض ما دامت الأمور لا تصل إلى حد المشاكل الكبرى فى الحياة .

قالت لى سناء يومًا : كنت أحلم بأن يكون زوجى راجل خواجة .

قلت لها : لماذا خواجة ؟

قالت : لأن الخواجات لا يعرفون الكذب .

فالذى أعجب زوجتى فىّ منذ بداية علاقاتنا الصراحة والصدق والوضوح .

* * *

وفن الكولاج من الفنون الصعبة التصديق ولكنها مملوءة بالأحاسيس التى تثير فى المشاهد لها أكثر من تساؤل ، بل قد تدعوه إلى التفكير والتأمل ، وعندما قال صلاح جاهين للفنان كنعان : أنت راجل مجنون كان يعتقد أن هذا التعليق سيسره لأنه يدل على مدى انغماسه فى عالمه الخاص الذى خلقه لنفسه .

وقال صلاح جاهين عن فن منير كنعان : إنها لوحات مربعة ومستطيلة ، ومستطيلة جدًّا مملوءة بالبقع الملونة ، التى تستطيع أن ترى مثلها فى « معجنة » أى نقاش ، عندما يعجن الأحمر بجوار الأبيض بجوار الأصفر إلى آخر ما فى الألوان ، على شرط أن يكون هذا النقاش قد ألقى معجنته هذه فى النهاية بعد أن استهلكها تمامًا ، ولم يعد يجد فيها مكانًا جديدًا لعجنة أخرى .

ثم هناك لوحات أخرى عبارة عن أشياء ملصقة بالصمغ ، أسلاك معقدة وأصداف مهشمة ، وجرائد ممزقة ، ونافذة خشبية مخلعة ومبقعة ، وغربال مهلهل وقد الصقت بجوار كل هذه « الأعمال » قطعة صغيرة من الورق تحمل رقمًا !

إن مقدرة الفنان كنعان لا يشك فيها أحد ، وهو لم يلجأ إلى مثل هذه الشطحات لعجز أو قصور ، ولكن لأنه يريد ذلك ، وقد أعجبنى أنه يريد فيفعل ما يريد ولكن أحزننى أن أحدًا لم يفهم ما يريد ، ولم يستطع أحد أن يدخل معه إلى عالمه الخاص الذى خلقه لنفسه .

* * *

ويرى مصطفى إبراهيم مصطفى الناقد الفنى فى أعمال كنعان وجها آخر وشكلاً مختلفًا عما رآه الفنان الرسام صلاح جاهين حين قال عنه : هل تحب الصدمات ؟ هل تحب الأخشاب والخيش والخوص والسلك ؟ لا شك أنك لم تسأل نفسك ، إذن هل تحب الأحجار

الكريمة ؟ الماس والعقيق واللازورد ، لماذا ؟ ربما أحببت فيها نقاء مادتها أو صفاء ألوانها أو رقة خطوطها ، ولكن هناك من يحبون الأحجار الكريمة وغير الكريمة لأنهم يرون فيها رسومات غريبة أو شخصيات خرافية حوريات أو آلهة أو شياطين ، فإذا كنت من هؤلاء فلن تجد فى أعمال كنعان صورة واحدة وإنما ستجد مئات من الصور والأشكال والأحاسيس ، ستجدها أنت وحدك ، هذا إذا لم تصدمك هذه الأعمال بأشكالها وموادها المتنافرة من خيش إلى خشب إلى سلك إلى خوص إلى صحف ممزقة ومسامير وغير ذلك .

ولكن هناك ما هو أكثر أهمية من غرابة المواد .. هذه الغرابة قد تثير عدم استحسانك أو على الأقل قد تثير فضولك ، لكنه فضول سرعان ما يتلاشى بمضى الوقت لأنك ستكتشف فى النهاية أن هذه الأعمال كلاسيكية تمامًا ، لا تدهشوا فرغم غرابة المواد التى استخدمها كنعان إلا أنه اعتمد على خبرته الكلاسيكية فى خلق أنغام لونية منسجمة ، البيج مع البنى والأزرق الداكن مع الرمادى المائل للزرقة هكذا .

ولكن هناك موقف آخر .. فكنعان يندفع فى لوحات أخرى إلى أن يرفض تمامًا خبرات الكلاسيكية فيقدم مواد عارية تمامًا خالية من أى إضافة بحيث يضفى شكلها فى الواقع على شكلها المقدم به ، وفى حين آخر إلى التطرف فى الحداثة مع التطرف فى الكلاسيكية

كتلك اللوحة ذات الإطار الكلاسيكى جدًّا « ذهبى اللون مسرف فى الزخارف » ، والموضوع المصنوع من قطع القماش ذات ألوان مختلفة متنافرة ، هذا بدوره يثير تساؤلاً هو : لو كان الفنان يبحث عن الصدق للجأ فقط إلى الغريب ، ولو كان يبحث عن الكلاسيكية للجأ إلى خبراته القديمة فما الداعى إذن للوقوف من هذين الخطين المتناقضين ؟ من العسير أن نجيب ولكن من الممكن من خلال السؤال أن ندرك أكثر مواقف الفنان ، وأقل ما يقال فى هذا ، هو أن الفنان ينسلخ ، أو هو يحول خبراته الكلاسيكية إلى شىء جديد فى الوقت الذى يضيف فيه شيئًا لم يكن قد عرفه من قبل ، إنها عملية الخروج من القديم إلى الجديد ، الخروج بالقديم والتحول به إلى جديد ، وذلك هو الشرط الضرورى الذى يجعله يتطور طبيعيًّا ومنطقيًّا ، فإن التطور الذى لا يستند إلى حلقاته السابقة هو تطور عقيم لا يلبث أن يتلاشى دون أثر .

* * *

والناقد الفرنسى كريستين روسيلون قال عن منير كنعان : إن هذا الفنان المعروف بتجريديته له جذور عميقة فى الفن التشخيصى ، أولاً : بسبب عمله كمصور منذ عام ١٩٤٠ فى المجلات الكبرى التى تصدرها مؤسستا دار الهلال وأخبار اليوم ، وثانيًا لأنه مارس هذا الأسلوب طيلة عشر سنوات من حياته الفنية ، ومن البداية دخل

فى محاولات لإلغاء الموضوع والرواية من عمله ، واستطاع من هذا المنطلق أن يشيد لنفسه أسلوبًا خاصًا ، وأن يطرح قضايا تشكيلية تشبه إلى حد كبير القضايا التى طرحها فى عالم التشكيل كل من Jaspex Johns ، Rauschen Bergne فى الولايات المتحدة فى نفس المرحلة الزمنية .

من هذا المنطلق تصبح المادة والعمل عليها العنصر الأساسى للأداء الفنى والكافى بذاته لخلق الجمال وإثارة الأحاسيس الفنية ، وقد تمخضت تجارب كنعان فى هذه المرحلة عن مجموعة من اللوحات الزيتية على القماش تحمل عنوان « الجدار » وذلك فى الفترة من ١٩٦٠ إلى ١٩٦٤ ، إلا أن كنعان لم يزل يحتاج إلى الحركة فى عالمه الفنى ، وهى العنصر الذى يرتكز عليه فى مجموعة أخرى من اللوحات بالزيت على القماش تحت عنوان « إيقاعات وكذلك فى دفقات من أعمال الكولاج ، وهو الاتجاه الذى تغلب على ساحة أعماله الفنية منذ نهاية الستينيات .

وإن كان منير كنعان قد استلهم هذه التقنية من مدرسته فى البصريات ، إلا أنه أتقنها إتقانًا كاملاً فى مجموعة من أعمال الكولاج يستخدم فيها القصاصات الملونة ليخطف عين المتفرج جاذبا إياه إلى دوامة الخيال البصرى .

إلا أنه لم يكن فى وسع كنعان إلا يعود إلى « التصوير » بمعنى

الاستخدام المباشر للفرشاة والألوان لكنه فى هذه العودة كان يصطحب معه الجولاج . فمنذ نهاية السبعينات وهو يخوض تجربة جديدة يمزج فيها الأسلوبين فى ميلاد لوحات تجريدية يمزقها ثم يعيد تركيبها فى صياغة جديدة تجعل من مساحة اللوحة لعبة انعكاسات وإشارات ذاتية .

* * *

الفهرست

الصفحة

رقم الإيداع	١٩٩٣ / ١٠٨٥٩
الترقيم الدولى	ISBN 977 – 02 – 4307 – 8

١ / ٩٣ / ٩٢

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)